جلفر في بلاد الأقزام

كامل كيلاني



جَلِفَرْ فِي بِلادِ الأَقْزام

جَلِفَرْ فِي بِلادِ الأَقْزام

الرحلة الأولى

تأليف
كامل كيلاني

هنداوي

جَلِفَرْ فِي بِلادِ الأَقْزام

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٦٩٩٠
تدمك: ٦ ٠٣٣ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

المحتويات

تمهِيد

وَلَدِي مصطفى:[١]

كان من الطبيعيِّ — بعد أن أَتممْتَ قِراءةَ «مكتبةِ الأطفالِ» متدرِّجًا من السَّهل إلى الصَّعبِ — أَنْ تسهُلَ عليك القراءَةُ ويَزِيدَ شَغَفُكَ بالْمُطالعةِ. وقد أصبحتَ — بعد هذه الْمَرانةِ الطويلةِ — قادرًا عَلَى فهمِ الأُسلوبِ الأدبيِّ، بأدنَى تأمُّلٍ وأيسرِ انتباهٍ، وأصبحتَ الآنَ تقرأُ الكتابَ في ساعاتٍ — بعد أنْ كنتَ تقرؤُهُ في أيَّامٍ — فكان ذلك أكبرَ باعثٍ لي على إظْهارِ هذه الحلقْةِ الْقَصَصِيَّةِ الجديدةِ، لتكونَ رفيقَكَ وسميرَك في آخر مرحلةٍ من مراحِل طفولتكَ، وأوَّلِ مرحلة من مراحل صِباك.

فإذا انتهيتَ من قراءَة هذه القَصَصِ، بدأتُ في إعداد «مكتبة الشَّباب» لكَ. وأنا أدعو الله أن يوفِّقَني إلى إنجازها، كما وفَّقَني إلى إنجاز «مكتبة الأطفال».

كامل كيلاني

[١] نثبت فى هذه الطبعة تمهيد الكتاب ومقدمته كما نُشِرا فى الطابعات السابقة.

فاتحة القصة

(١) تعليمُ «جَلِفَر»

لم يكن أَبي غنيًّا ولا فقيرًا، فقد كان دَخْلُهُ السَّنوِيُّ يكادُ يَفِي بحاجات أُسْرَتِنا على الكَفافِ، ولم يكن يملك إلّا ضَيْعَةً صغيرةً في «نُوتِنْجِهامَ» يُنفِقُ منها على أَولادِهِ الخمسةِ، وقد كنتُ أوسطَهم. وما إن بَلَغْتُ الرابعةَ عشرةَ مِنْ عُمُري، حتى أَدخلني مدرسةَ «عَمَنْويلَ» بجامعة «كَمْبِرِدْجِ» حيث قضيتُ ثلاثَ سَنواتٍ في الدرسِ والتحصيلِ بجِدٍّ واجتهادٍ، ثم عجزَ أَبي عن مواصلة الإِنفاقِ عليَّ، فاختارَ لي أُستاذًا مشهورًا بمدينة «لَنْدنَ» اسمهُ الدكتورُ «جاك بِتْسُ» ليمرِّنني على الْجِراحة، ويفقِّهني في الطبِّ. فقضيتُ عندهُ أَربعَ سنواتٍ، لم أَكنْ أَظفَرُ — في خِلالِها — من أَبي إِلَّا بقليلٍ من النُّقود يبعث بها إليَّ بين حينٍ وآخرَ، فأخذتُ نفسي بالتقْتيرِ لأُنفقَ تلك النقودَ الضئيلة في شِراءِ ما أَحتاجُ إِليه منَ الكتبِ الرياضيةِ وكتبِ السياحةِ. فقد أَعدَدْتُ نفسي — منذ نَشْأتي — لركوبِ البحارِ، وشعَرْتُ أَنني لم أُخْلَقْ إلَّا لأكونَ ملَّاحًا، وما زالَ ينمو فيَّ هذا المَيْلُ حتى غلبني على أَمري، وملكَ عليَّ كلَّ نفسي.

(٢) زَواجُ «جَلِفَر»

ثم تركتُ الدكتورَ «بِتْسَ» وعدتُ إِلى أَبي، فجمعتُ — من عَمِّي وأَقاربي — أَربعين جنيهًا لأذهبَ بها إلى «هُولَنْدا» وأَتعلمَ صناعةَ الطبِّ في مدينة «لِيدِنَ». وضَمِنَ لي أَهلي أَن يرسلوا إِليَّ أَربعين جنيهًا أُخرى في العام القادم، وقد بذلتُ جُهْدي كلَّه متفقهًا في درس الطبِّ عامين، لأنني كنتُ على يقين من أنه سيكون لي خيرَ مُعينٍ في أَسفاري ورِحْلاتي القادمة.

وما عُدْتُ من «ليدِنَ» حتى عُيِّنْتُ جَرَّاحًا بأحد الْمَشافِي (الْمُستشفيات) بوساطة الدكتور «بِتْسَ» حيث مكثتُ ثلاثَ سنواتٍ ونصفَ سنة، قمتُ في خِلالها بكثيرٍ من السِّياحات في البلاد الشرقية. وما كِدْتُ أنتهي من ذلك حتى صَحَّتْ عزيمتي على الإقامةِ بِمَدِينَةِ «لَنْدَنَ»، وشجَّعني الدكتورُ «بِتسُ» على تحقيقِ هذه الفكرةِ، فقد عَهِدَ إليَّ بأمر العناية بِمَرْضاهُ.

ثم اكْتَرَيْتُ طَبَقًا صَغيرًا في أحَدِ فنادق «لَنْدَنَ»، وتزوَّجْتُ سيِّدةً كريمةً أبوها تاجِرٌ، فمنحتني أربَعَمِائةِ جنيهٍ، فادَّخرْتها للحاجةِ، لتكونَ عوْنًا لنا على الأزَماتِ والشدائدِ.

(٣) دَواعِي السفرِ

وما إِن ماتَ الدكتور «بِتْسُ» حتى حلَّ بصناعتي الكسادُ، وقلَّ عملي بعد أن فقدتُ أكبرَ نَصيرٍ لي في الحياة. ولم يكن أمامي وسيلةٌ للنجاح في صِناعتي إلَّا أن أسْلُكَ سُبلًا لا يرتاح إليها ضميري، ويأباها عليَّ شرفُ مِهْنتي؛ فقد كان أكثرُ الأطباءِ حينئذٍ يَلْجَئون إلى وسائل الخداع والدَّجل (أَي الْكَذِبِ)، لِيُرَوِّجوا لِمهنتهم، ويستدِرُّوا الكَسْبَ بتلك الوسائِل الدَّنيئة التي لا أرْتَضِيها لنفسي — مهما تشتدُّ بيَ الفاقَةُ — فلم أرَ وسيلة للخروج من هذا الْمَأْزِق إلَّا الهجرة والرحيل إلى بلادٍ أخرى، تلمُّسًا للكسب، فاسْتَشَرْتُ — في ذلك — زَوْجي وخُلَصائي فلم يُمانِعوا. وثمةَ صَحَّتْ عزيمتي على السفر، واشتغلت طبيبًا في إحدى السُّفنِ الكبيرة، وظفِرْت بِقسْطٍ من الثروة، بعد أن رحلتُ عدة رحْلات إلى الهند الشرقية والغربية وغيرها. وكان جُلُّ هَمِّي أن أُطالِعَ كتب المؤلِّفين القدماءِ والْمُحْدَثِينَ، وأن أُعْنَى بدرس أخلاق الشعوب ولُغاِتهم، وساعدتني ذاكِرتي القوية على ذلك. وكانت آخرُ رِحْلة لي غيرَ موفَّقة، فاعتزمت أن أعود إلى بلدي وأَقْضِيَ حياتي بين زوجي وأولادي. وقد لبثت بعد عودتي ثلاث سنوات أُؤَمِّلُ خلالها أن أجد عملًا — يَكفيني وأهلي — فلم أظفر بطائل. فاضطُررت إلى السفر مرة أخرى في سفينة كانت ذاهبةً إلى جزائر الهند الشرقية، فأقلَعت بنا من «برستولَ» في ٤ مايو/أيار سنة ١٦٩٩. وكان أولُ الرحلة موفقًا وسعيدًا، ولم نكن نعلم ما يُخَبِّئُه لنا القدر من النكبات والْمَصائب.

(٤) هُبوبُ العاصفةِ

وقد لَقِيتُ في رِحلتي كثيرًا من الحوادث التي لا تَعْنِي القارئَ كثيرًا، فَلْأَضْرِبْ عنها صفحًا، ولْأَكتفِ بذكر الحادثة التي تركت في نفسي أكبر الأثر.

ما كادت السفينة تقترب من نِهاية الرحلة حتى تبدَّلَ كل شيء — فقد كان البحر هادئًا جميلًا — وكنَّا سُعَداءَ برحلتنا البهيجة — ففاجأَتنا عاصِفةٌ هوجاءُ، فاضطرب البحر وهاجَ، وتعالت الأمواج كالجبال، وما زالت العاصفة تشتد وتعنُف، والْمَلاحُون يَبْذلون أقصَى جهودهم في مغالبتها، حتى لقد مات منهم اثنا عشَر رجلًا — لشدة ما كابدوه من الجُهد والإعياء — وأصبحنا نتوقعُ الهلاك بين لحظة وأخرى. وفي اليوم الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني، وهو أول يوم من أيام الصيف في تلك البلاد، أبصرْنا صخرة تقترب منها سفينتنا، فحاولنا جُهدنا أن نبتعد بالسفينة عنها، فلم نوفقْ، وغلبتنا الأمواج على أمرنا، فاندفعتْ بسفينتنا إلى تلك الصخرة، فصدمَتْها صَدْمَةً عنيفةً، فتحطمت ألواحها وغَرِقَتْ — لِوَقْتِها — وغَرِق ملَّاحوها، ولم ينْجُ منهم إلا ستةٌ كانوا معي.

وقد كان من حسن حظِّنا أن أسرعنا إلى زورقٍ قبل أن تصطدمَ السفينةُ والصخرة، وما زِلْنا نُسَيِّرُ الزورق بقوة حتَّى قطعنا ثلاثة أميال، ثم غلبَنا التعب وأجهدَنا الكدُّ، فتركنا أنفُسَنا تحت رحمة الأمواج الهائجة. وبعد قليل هبت ريحٌ شَمالية عنيفة فقلبت زورقنا، ولا أعرف ماذا أصاب رِفاقي جميعًا، وأحسَبهم لم ينجُوا من الهلاك. أما أنا فظللْتُ أسبح — على غير هُدًى — حتَّى هدأتِ العاصفة قليلًا، وكنت كلما دبَّ اليأس إلى قلبي اعتصمتُ بالصبر وتعلَّقت بالأمل، حتى نُهِكَتْ قُوايَ، ولم أستطع حَراكًا، فاستسلمت للقدر، وفوَّضتُ أمري إلى الله. وإنِّي لكذلك إذ قذفتني موجة قوية نحو الشاطئ، فرأيت الأرضَ قريبةً مني، فسِرْتُ حتى وصلت إلى ساحل البحر، وفتَّشت عن مكان آوي إليه، فلم أجد أثرًا لإنسان أو نبات، فاستلقيت على ظهري ونمت نومًا عميقًا — لشدة ما أحسستُ من الجوع والنَّصَبِ — ولم أستيقظ من نومي إلا بعد تسعِ ساعاتٍ كاملَةٍ.

فِي بلَادِ الأقزامِ

الفصل الأول

(١) في قبضة الأقزام

لم أكَد أُفيق من نومي حتى رأيتُ نور الشمس قد ملأ الدنيا، فحاولت أن أنهَض، فرأيتُني لا أستطيع النهوض، وذهبتْ مُحاولتي عبثًا، فلقد وجدتُني مستلقيًا على ظهري وأنا مُوثَقُ اليدين والسَّاقين، وقد شُدَّ شَعري إلى الأرض بخيوط دقيقة، ورأيت كثيرًا من تلك الخيوط ملفوفًا حول جسمي — من الْمَنكِبيْن إلى الفَخِذَيْن — وكانت الشمس مُرسِلة أشِعَّتها القوية على عينيَّ، فحاولت أن ألتفت يَمْنَةً أو يَسْرَةً فلم أستطع إلى ذلك سبيلًا. وقد تَأَذَّتْ عيْناي بِوَهَجِ الشمس، وكادتا تَتْلَفَان، ثم طرقت أذُنَيَّ أصواتٌ خافِتة غريبة بالقرب مني، فحاولت أن أرى مصدرَها، فلم أستطع أن أتبيَّنَه، لأن ضوء الشمس — الذي كاد يُتلف عينَيَّ — منعني أن أرى شيئًا. ثم شَعرْت بأشياءَ تتحرك على ساقي اليُسْرَى مُرتَقِيَةً بخفَّة إلى صدري، وما زالت سائرةً حتى وصلت إلى ذَقْني!

وشدَّ ما كانت دهشتي حين رأيت أمامي وجه إنسان صغير لا يَزيد طولُه على إصْبَعَين، وبيده قوس وسهم صغيران، وعلى ظهره جَعبة مملوءة بالسِّهام الصغيرة. ثم رأيت نحو أربعين شخصًا — في مِثْل طوله وهيئته وزيِّه — فصرخت من فَوْري صرخاتٍ مزعجةً، فأسرعتْ تلك الحشراتُ الآدمية هاربةً، وامتلأت قلوبُهم رُعبًا وهَلَعًا، وأُصِيب بعضهم — كما علمت فيما بعدُ — بجروح خَطِيرة حين هَوَوْا إلى الأرض. وقد حسِبتُني خلَصت من شرهم، ولكنني لم ألبث أن رأيتهم يقفِزون على جسمي مرة أخرى، وقد جَرُؤَ أحدهم فتقدم حتى وصل إلى وجهي ورفع يديه وفتح عينيه مُتَفَرِّسًا في ملامِحي، وقد بدت على أساريره أماراتُ الدهشة والعجب، ونطق بجملة لم أفهم معناها، فأعادها رفاقه مُهَلِّلين مكبِّرين.

(٢) حربُ الأقزامِ

وفي استطاعة القارئ أن يُمَثِّل لنفسه حَرَجَ موقفي، وشدة دهشتي حين رأيتُني مُكَبَّلًا مُوثَّقًا بالحبال من غير جَرِيرَةٍ ارتكبتُها. وقد كان من الطبيعي أن أبذل كلَّ ما في وُسْعي لأتخلصَ من تلك القيود، فرفَعتُ رأسي — بقوة شديدة — فانقطع كثير من الخيوطِ الدقيقةِ التي شُدَّ بها شَعري من الجهة اليمنى، وقد تألَّمْتُ لذلك أَلَمًا شديدًا، ولكنني استطعتُ أن أُحرِّكَ رأسي يَمْنَةً ويَسْرَةً فأرى شيئًا مما حولي، ثم جَذَبْتُ يَدِيَ اليمنى بقوة فقطعتُ الخيوطَ التي أوثقوني بها.

وما إن رَأَى الأقزامُ ما صنعتُ، حتى شمِلهمُ الفَزَع، وهربوا مذعورِين، ونطق أحدهم بجملة لم أفهمها، وما أَتمَّها حتى أَطلق أَصحابُه أَكثرَ من مائة سهم على يديَ اليمنى، ثم أَتْبعوها بسهامٍ — لا عِدادَ لها — قذفوا بها في الهواء ليُرهبوني، فأكفَّ عن مُقاومتهم. وقد أَحسست من وقعِ هذه السهام مِثلَ وَخْزِ الإبَرِ، وتألَّمْتُ منها — على دِقَّتها وصِغَرِها — أَشد الألم.



فصَبرت قليلًا، ثم تجمَّعَتْ شجاعتي، فهممت بفكِّ قُيودي مرَّة أُخرى، وما فعلتُ حتى أَمْطَرَني الأقزامُ وابِلًا من سهامهم الدقيقة، وكنت — لِحُسن حظِّي — مُرتديًا صِدارًا من جلد الجاموس، فلم تنفُذ إلى صدري سهامهم.

ولَمَّا رأَيت أَن كلَّ محاولة للفَكاك لن تَنْتُج إلا شرًّا، آثرْتُ الهدوء والسَّكينةَ، وانْتَوَيْتُ البقاء إلى الليل ليتسنَّى لي فَكُّ قيودي في الظلامِ.

(٣) خَطيبُ الأقزامِ

وما إن رأَوْا هدوئي واستسلامي، حتى كفُّوا عن إطلاق سهامهم، وكنتُ أَراهم يزدادون زيادة مُطَّرِدة — لَحْظة بعد أُخرى — فلم تُخِفْني كثرةُ عَددهم، لأنني كنت على يقين من قدرتي على الفَتْك بأكبرِ جيش من جيوشهم، وسحقِهِ بأقدامي — مهما يكثُرْ عددُه — بأيسر جُهد. وبعد قليل سمعت صوْت عمَّال منهمكين في العمل، فأدرتُ رأْسي يَسْرَةً، فرأَيت جماعة من الأَقزامِ يعملون بِجدٍّ في إقامة مِنْبَرٍ على جانبيه سُلَّمانِ، فلما أَتَمُّوه صَعِد إليه سَيِّدٌ مِن سَراتهم، ولم يكد يبلغ أَعلاه حتى نَهَكَهُ التعب. وكان ارتفاع هذا الْمِنْبَرِ الذي أَعْلَوْهُ قدمًا ونصفَ قدم، وقد صعِد — مع هذا السَّرِيِّ — ثلاثةٌ من خدمِهِ، فوقف واحد منهم إلى يمينه، وآخرُ إلى يساره، وثالثٌ من ورائِه يحمل أَطرافَ ثوْبِه الطويل. ثم أَخذ الخطيب يُلْقي عليَّ خطبة طويلة لم أَفْقَهْ منها كلِمةً واحدة. وكان يصيح بأعلى صوته، وأَنا لا أَكاد أَسمع منه إلَّا جَرْسًا خافِتًا، وهو على قِيدِ شِبْرٍ مني، وكان صوْتُهُ الخافِتُ مناسبًا جسمَه الضَّئيلَ، ولم يكن شابًّا ولا شيخًا، بل كَهْلًا تَلُوحُ على وجهِهِ أَمارات النشاط والْجِدِّ وقد عرفتُ — من حركاتِه وَإشاراته، وَطَلَاقة لِسانه، وإعجاب سامِعيه بحسن بَيانِه — أَنه من خُطبائهم النابغين الْمُتَصَرِّفين في فنون القول وأَساليب البيان.

ورأَيت من حسن الأدب أَن أَرُدَّ على خطبته — وإِن لم أَفهم منها كلمة واحدة — بإِشارات الخضوع والاستسلام، فهمست بكلمات خافتة حتى لا يُؤْذيَه صوتِي الطبيعيُّ الذي كان — لارتفاعه — يُزعجهم ويُؤذيهم، ويُصِمُّ آذانهم، وَأَشَرْتُ إليه بما يفهم منه أَنني جائع، فنزل عن مِنبره، وأَمر من حولهُ بإِحضار ما أَحتاج إليه من طعام وشراب.

(٤) طعام «جَلِفَر»

وبعد قليل أَحضروا إليَّ من الطعام والشراب ما حَسِبوا أَنه يكفيني، ثم صَعِدَ إِلَيَّ أَكثرُ من مائة قَزْم على سلالِمَ وضعوها على جسمي، وساروا مُرْتفعين إلى فمي، وفي أيديهم سِلالٌ مملوءة باللحم والخبز، وكانت خِرْفانُهم لا تزيد على حجم الضفادع الصغيرة، فكنت أَلْتهم خمسة منها وستة أرغفة في فمي مرة واحدة، وَهُمْ يَدْهَشون من ذلك، ويتملكهم الذُّعر والفزع. ثم أشرت إليهم أنني في حاجة إلى الْماء، فأحضَروا إليَّ أكبرَ بِرْميل عندهم، وما زالوا يدحرجونهُ حتى اقترب من فمي، ففتحوه فجَرَعْتُهُ كله جَرْعَةً واحدَة، فصفَّقوا مدهوشين مما رأَوْا، ورقَصُوا من شدة الفرح — ولهم العذر في ذلك — فإنهم لم يروْا في حياتهم رجلًا في مثل هذه الضخامة، ولقد كنت بين هؤلاء الأقزام كأنني جبلٌ شامخ، وقد أكلت من طعامهم ما يكفي لغذاء جيشٍ كبير منهم شهرًا كامِلًا. وقد كانوا فَزِعِين من رُؤيتي، فلما أَمِنوا بطْشي ورَأَوْا استسلامي وهدوئي انطلقوا يُغَنُّون ويَمْرَحون، وتزاحموا إليَّ يرقصون على صدري، وقد استولى عليهم السرور والابتهاج.



وقد كان في قدرتي أن أقذف بهم إلى الأرض، وأن أُهلكهم في لحظة واحدة، ولكنني رأيت — من كرمِهم وحسن معاملتِهم — ما لم يكن يخطُر لي على بال، فلم ألجأْ إلى القوة، ولم أشأ أن أُعكِّر عليهم صفاءهم وابتهاجَهم.

ولما انتهيت من طعامي شعَرْت بحاجة إلى النوم، وقد علمت — فيما بعد — أن الإمبراطور كان قد أوفد سفيره لنقلي إلى مدينته، وأن ذلك السفير قد أمرهم بوضع مادة منوِّمة في شرابي الذي سقَوْنيه، وقد أعجب سفيرُ الإمبراطور بهدوئي واستسلامي، فأشار إليهم بكلام لم أفهمه، فأحضروا إليَّ دواء شمِمتُ له رائحة ذكية، فمرهموا جروحيَ التي سببتها سهامهم، فشُفيت في الحال، وزالت آثار السهام، ثم أمرهم أن يقطعوا بعضًا من الخيوط التي أوثقوني بها، لأتمكن من النوم على جانبي، وما كادوا يقطعونها حتى استسلمت للنوم، وما زلت نائمًا ثمانيَ ساعات كاملة.

(٥) مَهارة الأقزام

وكان لهؤُلاء الأقزامِ خبرةٌ عجيبة بعلوم الهندسة، ومهارةٌ فائقة في كل ما يُزاوِلونه من الأعمال، فما إن أمرهم سفيرُ الإمبراطورِ بنقلي إلى عاصِمة المملكة، حتى ذلَّلوا كلَّ عقبةٍ في سبيل تنفيذ إرادته.

وقد علمت — فيما بعد — أنه عَهِد إلى خمسة آلاف نجَّارٍ ومهندس بعمل عربةٍ كبيرة يحملونني عليها، على أن يكونَ ارتفاعُها ثلاثَ أصابعَ وطولها سبعَ أقدامٍ وعرضُها أربعَ أقدام، وبها اثنتان وعشرون عجلةً. فلما انتهوْا من صُنعها، أقاموا ثمانين عمودًا ارتفاعُ كلٍّ منها قدمان، وفي أعلاه بَكَراتٌ، ثم أنفذوا خيوطًا متينة مُحكمة الفَتْل في هذِهِ البكرات، وفي آخر كلِّ خيطٍ منها شِصٌّ، ثم ألقَوْا عَلَيَّ تِلْكَ الشُّصوصَ وشدُّوها بقوةٍ. وتعاوَن تِسْعُمائةٍ من أقويائهم على شدِّ تلك الخيوط، حتى وَضعوني في تلك العربةِ، وأنا مستغرقٌ في نوم عميق. وقد أنجزوا كلَّ هذا العمل في نحو ثلاث ساعات، ثم شَدُّوا إلى تلك العربة ألفًا وخَمْسَمائةِ جوادٍ من أقوى خيول الإمبراطور، وكان ارتفاعُ كلِّ جواد منها أربعَ أصابعَ ونصفَ إصبعٍ، ثم سارت العربةُ في طريقها إلى مدينة الإمبراطور.

(٦) في أَنْفِ «جَلِفَر»

وما زالت العربةُ سائِرة نحوَ أربع ساعاتٍ، ثم استيقظت فجأةً لوقوع حادث عجيب، فقد وقفت العربةُ في الطريق ريثما يَتِمُّ إصلاحُ عَطْبٍ يَسِيرٍ أصاب أحد أجزائها، وفي أثناء وقوف العربة دفع الفضولُ ثلاثةً من الأقزام إلى التمتع برؤْية جسمي ووجهي، فتقدم أحدُهم إلى أنفي، وكان ضابِطًا جريئًا طُلَعَةً يميل إلى الدُّعابة والمزاح، وكأنما أراد أن يَخْبُرَني ويقفَ على تركيب جسمي الضخم العجيب. وما إن وَصَلَ إلى أنفي ورأى طاقتَيْه حتى خُيِّل إليه أنَّهما كَهْفانِ، فدفعه فضولُه إلى سَبْرِ غَوْرِهما، فوضع في إحداهما رُمحَه الصغير، وحين أحسست وخزةَ رمحه في أنفي عَطَسْتُ، فتقاذف من أنفي رشاشٌ نَفَذ إلى الضابط كأنه رَصاص، فانقلب على ظهره من شدة الذُّعر، وعاد أدراجَه هو وَرفيقاه وهم يرتجفون من شِدَّة الخوف.

(٧) استئنافُ السَّيْر

ثم استأنفت العربةُ سيرها، وما زالت سائرةً بقية النهار، حتى إذا أَدرَكَنا الليلُ، قام على حراستي خَمْسُمائةِ حارسٍ، يحملون قِسِيَّهم وَسِهامَهم، ليُسدِّدوها إليَّ إذا حاوَلْت الفَكاكَ من أَسْرِي. وإلى جانبهم خَمسمائة قَزْمٍ يحملون المشاعِل لتُضيءَ لهم السَّبيل.

واستأْنفنا السير مرة أُخْرى حين أَشرقت الشمسُ، وما زِلْنا سائرين إلى وقت الظُّهر، فلم يبقَ بيننا وبين المدينة إلا مائتا ذِراعٍ، فرأينا الإمبراطورَ وجميعَ رجالِ حاشيته قد خرجوا لاستقبالنا وَالتقَوْا بنا في ذلك الْمَكان، وكان الإمبراطور شديدَ الشَّوق إلى رُؤيتي — بعد ما سمعه عَنِّي من الغرائبِ وَالْمُدهِشات — وقد رأَيته في مَوْكِبٍ حافِل، وقد حاوَل أَن يتقدم نحوي، فحذَّره بعض أَتباعه الدُّنُوَّ مني، والصعودَ إلى جسمي، حتى لا يحدثَ له مكروهٌ، أو يصابَ بأَذًى.

(٨) الهَيْكلُ المهجور

وكان في ذلك الْمَكان الذي حللْناه معبدٌ قديم، وهو يُعَدُّ بحقٍّ أكبرَ هيكل في جميع أرجاء المملكة، وقد كانوا يصلّون فيه، ثم هجروه بعد أن تدنَّس منذ بضعِ سنوات، فقد وَقع فيه حادثُ قتل، فأصبح — على حسَب تقاليدِهم وعاداتهم — دَنِسًا بعد أن كان مُقَدَّسًا، فهجروه بعد أن نقلوا كلَّ ما فيه من أثاثٍ وطُرَفٍ إلى معبد آخرَ. وكان ارتفاعُ الباب الشَّماليِّ الكبيرِ أربعَ أقدامٍ وَعرضُه قدمين، وَبه نافِذتان ترتفعان عن سطح الأرض إِصْبَعين، وَطولُ كلّ منهما ستُّ أَصابعَ.

ثم جاءوا بإِحدَى وتسعين سلسلةً في حجم السلاسل الرقيقة التي نُعلِّقُ بها ساعاتنا، وكان طولُ كلِّ سلسلةٍ منها ستَّ أقدام، فشدُّوها إلى ساقِيَ اليُسْرَى، وأَحْكَموا رِباطَها بستةٍ وثلاثين قُفْلًا حتى لا يدَعوا لِي وسيلةً للفِرار.

(٩) البُرْجُ العالي

وكان أمامَ ذلك الهيكل — وعلى مسافة عشرين قدمًا منه — بُرْجٌ عالٍ ارتفاعُه خمسُ أقدام، فصعِد الإمبراطور وحاشِيَتُه إلى ذِرْوَته ليتسنَّى لهم رؤيتي والتَّحَقُّقُ من شكْلي، وهم بِمَأمَن من كل خطر، واشتد زِحامُ الشعبِ حوْلي، فقد ذاعَ صِيتي في أَرجاء تلك البلاد، وأقبل الناس من كل مكان، ليرَوْا ذلك العِمْلاقَ الهائل، الذي أطلق عليه أهلُ تلك البلاد اسمَ «الجَبل الآدَميِّ»، فتوافَدوا مُسْرِعين إلى رؤيتي، وصعِد إلى جسمي نحو عشرة آلاف قَزم، فأشفق الإِمبراطورُ عليَّ وأمر بإنزالهم جميعًا، وحرَّم على شعبه الصُّعودَ إِلى جَسَدي، وهدَّد من يخالف أمرَه بالقتل.

ثم أمر الإِمبراطور بقطْع الخيوط التي كانوا قد أوثقوني بها من قبل — فنهضت واقِفًا، وسرت حول الْوَتِدِ الذي شدُّوا إليه السلاسل، في دائرة قصيرة أمام ذلك الهَيْكلِ العَتِيقِ. وليس في وُسْع إنسان أن يتصور مقدار دهشة هذا الشعبِ وعَجَبه حين رآني واقفًا على قدميَّ، وكان طول تلك السلاسل نحو سِتّة أقدام، فأصبحت أستطيع أن أروحَ وأَغْدُوَ في شكل نصف دائرة.

الفصل الثاني

(١) زِيارَةُ الإِمْبِراطور

وفي ذاتِ يوم جاء الإِمبراطور ليراني في سِجْني — وهو راكبٌ على ظهر جواده — وقد كبَّدَتْه تلك الزيارةُ كثيرًا من المتاعب التي تغلَّب عليها بشجاعته وثبات جَأْشه؛ فإن جوادَ الإمبراطور أَجْفَلَ من شدة الخوف حين رآني، ولولا قوةُ الإمبراطور ودُرْبَتُه ومهارته في الفروسية لوقع عن ظهر جواده، ولكنه ظل لمهارته ثابتًا رابِطَ الجأش، وكأنه لم يحدث شيء. وقد أسرع رجالُ حاشيته فأمسكوا بِعنانِ جواده، فترجَّل الإمبراطورُ وأخذ يُجِيلُ نظره فيَّ، ويدور حولي ليراني من كل جهة، وهو بعيد عن متناوَل يدي، حتى لا يُعرِّضَ نفسَه للأخطار، وجلستِ الإمبراطورةُ وأمراءُ القصر وأميراتُه على مقاعِدَ أُعِدَّتْ لهم على مسافةٍ قريبة. وكان الإمبراطورُ أَطْوَلَ من رأيتُه من هؤلاء الأقزام وأقواهم بأسًا، ولهذا أصبح مَوْضِعَ هيْبَتِهم وإجلالِهم. وهو أقْنَى الأنْفِ، زيتونيُّ اللَّون، مُتَناسِبُ الأعضاء، دَمِثُ الخُلُق، رَزِينٌ، تتجلَّى في كل حركاته مظاهرُ الدَّعَةِ والجلالِ. وكان في التاسعةِ والعشرينَ من عمره، وقد مرت عليه سبعُ سنوات تقريبًا وهو جالس على العرش.

وقد اضْطَجَعْتُ على جَنْبِي لأتمكن من رؤيتِه، والتَّفرُّسِ في ملامِحِه، وكان يقترب مني أحيانًا فيصبح في متناول يَدِي، فلم يغِبْ عني شيءٌ من دَقائِق ملامحه وشكله. وكان على رأسِه تاجٌ ثمين من الذهب مُحلًّى بالجواهر، وقد حمل في يده سيفَه مُصْلَتًا ليدافِعَ به عن نفسه، إذا حاولتُ قطعَ أغْلالي، أو هممت أَن أبطِشَ به. وكان طولُ سيفه نحو ثلاثِ أصابِعَ، وغِمْدُه وقَبْضَته من الذَّهبِ الْمُرَصَّع بالماس.



أما صوتُ الإمبراطور فهو — على خُفُوتِه — جَلِيٌّ واضح النَّبَرات.

وكانت سَيِّدات القصر ورجال حاشيته يرتدون أفخر الثِّياب الْمُوشَّاةِ بالحجارة الكريمة. وقد تحدث إليَّ الإمبراطور فلم أُدْرِك شيئًا من كلامه، ولكنني أجبته بِلُغَتي فلم يفهم ما أقول، ولبثَ الإمبراطور وحاشيته ساعتين، ثم تركوني وحولي من الحرس عددٌ كبير، ليحُولوا بيني وبين جمهرة الشعبِ الْمُتَزاحِمِ الذي كان يحاول الدُّنُوَّ مني بكل وسيلة.

(٢) جَزاءُ الأشرارِ

ولم يخلُ هذا الشعب من فُضولِيِّينَ أَشْرارٍ، فلقد وصَلَتِ الْجُرْأَةُ ببعضهم إلى حد أن رشقني بالسِّهام، وقد سدَّد أحدهم سهمًا إلى عيني اليُسرى لِيَفْقَأَها، فرأى القائدُ الْمُوَكَّلُ بِحِراستي أن يَدْفَعَ عني هذا الأذَى، فألقى القبض على ستة من زُعَماء الأشرار، ولم ير عِقابًا يُكافِئُ جُرْمَهم إلا أن يَشُدَّ وَثاقَهم، ويدفعَهم بين يديَّ لأنكل بهم جزاء خُبْثِهم ومحاولتِهم الفتكَ بي. فأمسكت بهم في يديَ اليمنى، ووضعت خمسة منهم في جيب صِداري، وأدْنَيْتُ السادس من فمي متظاهرًا بأنني سآكله حَيًّا.

فظلَّ ذلك القَزمُ المسكين يُرسل صَرَخاتٍ مؤلِمَة، واستولى الجزع على القائد وجنوده حين رأوْني أُخرج من جيبي مُدْيَة صغيرة. ثم تبدل جَزعُهم وخوفهم بِشْرًا وائْتِناسًا حين رأَوْني أقطع الخيوط التي أوثقوه بها وأضعهُ — مُتلطِّفًا — فوق الأرض. وما رأى القزَمُ نفسه طليقًا حتى أسرع في فِراره، وهو لا يكاد يُصَدِّق أنه نجا من الهلاك. ثم أخرجتُ رِفاقَه من جَيْبِ صِداري — واحِدًا بعد آخرَ — وفعلتُ بهم ما فعلته بصاحبهم. وقد عطَف عليَّ القائدُ وجنوده ومَن حولَهم من الشعب، وبَدَتْ على وجوههم أماراتُ الحب والتقدير، حين رأَوْا كَرَمَ خُلُقي وتَرَفُّعي عن الانتقام من أعدائي — مع قدرتي على الفتك بهم —

وقد ذاع بين جميع السُّكان أنني رجل كريم خَيِّرٌ، وعلم رجال الحاشية — بعد قليل — بما صنعتُ، فكان لذلك أحسنُ وَقْعٍ في نفوسهم.



(٣) عاقِبَةُ الإحْسانِ



ولقد تهافت الفُضوليُّون والْكَسالَى على رؤيتي، وجاءوا إليَّ من كل أنحاء الإمبراطورية، وقد ذاع نبأ قدومي في كل مكان، وكادت القُرَى تخلو من ساكِنيها، فَتُعَطَّل الزراعة والصناعة، وتقف حركةُ البيع والشراء، فقد وفد الأقزام لرؤية العِمْلاق أو «الجبل الآدَمِيِّ» كما يُسَمُّونه. ولكنَّ جلالةَ الإمبراطور خَشِيَ سوءَ العاقبة، فأَمَرَ بألا يحضُر إليَّ أحدٌ إلا بِتَرْخيصٍ، وضريبة يفرِضُها عليه، وقد رَبَحَتِ الحكومةُ من جَرَّاء ذلك أمْوالًا طائلة.

وَفي هذه الأثناء عقد الإمبراطورُ مَجْلِسَ الشُّورَى، لينظر فيما يقرِّرُه في أَمري، فقد علمْتُ أن الاِرْتباكَ قد وصل بهم إلى أقصاه، فقد كانوا يخشَوْن أن أقطع أغْلالي فأُصبحَ طليقًا، وقد رأَوْا — إلى ذلك — أن غِذائي يُكَبِّدهم أمولًا عظيمة، ويتطلب منهم طعامًا كثيرًا، ورُبما سبَّب ذلك مَجاعَة في البلاد، فقد لا يَفِي غِذاؤُهم كله لإِطعامي. ورأَى بعضهم أن يكفُّوا عن تغذيتي حتى أَهْلِكَ جوعًا فيستريحوا من شَرِّي، وَرأى آخرون أن يمزِّقوا جسمي بسهامٍ مسمومةٍ، ولكنهم خشُوا أن يتعفَّنَ جسمي فينشُرَ الوَباءَ في مدينتهم، ثم ينتقل إلى جميع أنحاء الإِمْبراطوريَّةِ فَيُهْلِكَهم جميعًا.

وَإِنَّهم ليتشاوَرون في أمري، وَقد بلغت بهم الْحَيْرَةُ كلَّ مبلغ، إذ دخل عليهم ضابِطانِ، فأفضيا إليهم بما صنعتُهُ مع الأقزامِ السِّتة الْمُجْرمينَ؛ فكان لكلامِهما أحسنُ وقع في نفس

الإمبراطور. وَعطفَ عليَّ جميعُ أعضاءِ المجلس، وألَّفُوا لَجْنَةً — في الحال — لتفرض ضرائب على كلِّ قريةٍ من القُرى، حتى يَحصُلُوا على ما يكفيني من الطعام، ويقدموا إليَّ — في كلِّ صباح — ستةَ عجولٍ وأربعينَ خَروفًا وَمِقدارًا كبيرًا من الْخُضَر والبُقول والْخُبْزِ والماء وما إلى ذلك. وقد أمر جلالة الإمبراطور بأن يُدْفع ثمن ذلك كله من خِزانة الدوْلة، وعَيَّنَ سِتَّمائة حارس ليقوموا بخدمتي وَحِراستي، وقرَّر لهمْ كل ما يحتاجون إليه من طعام، وَقَد نُصِبت لهم الخِيامُ حوْل الهيكل الذي قرَّروا أن يكون بيتي وسِجْني معًا.

(٤) لغَةُ البلادِ

وَلم يكتف الإمبراطورُ بذلك كلِّه، فأمر باسْتِدعاء سِتِّمائة خياطٍ ليصنعوا لي ثوبًا يُشْبِهُ زِيَّ ساكِنِي هذه البلاد، واستدعَى ستة من كبار العلماء لِيُلَقِّنوني لُغة الأَهْلِينَ، حتى يَسْهُلَ على الإمبراطور والأمراء وغيرهم أن يُبادِلونِيَ الكلامَ، كما أمر أتباعَه بأن يُمَرِّنوا جياده وَجياد الأمراء وَالحرَس على الجرْي أمامي، حتى تتعوَّد رُؤْيتي بلا خوْفٍ. وَقَد نُفِّذَتْ أوامِرُ الإمبراطور كلها بِدِقَّةٍ تامَّةٍ.

أمَّا أنا فقد بذلتُ جهدي في تَفَهُّمِ هذه اللُّغة الجديدة، وَساعدتني ذاكِرَتي القوية وَرَغبتي الشديدة في تعلُّمها، على تفهُّم كثير من أساليبها في وَقت قصير، وكان الإمبراطورُ يكثرُ من زيارتي، وَيُوصي بي المدرِّسين والحُرَّاس، وكان أوَّلَ ما تعلمتهُ أن أُعْرِبَ للإمبراطور بتلك اللغة عن شكري وَرغبتي في الحرِّية. وَقد جَثَوْتُ أمامه على رُكْبَتَيَّ ضارِعًا إلى جلالته أن يَفُكَّ قُيودي وَيمنحَني حرِّيتي، فقال لي مُبتسمًا: «عليكَ بالصبر، فليس في قدرتي أن أَبتَّ في ذلك وحْدي، فإنَّ ذلك أمرٌ يعني الدوْلة كلَّها، وَلا بدَّ من استشارة وُزرائي في ذلك، بعد أن تُقْسِمَ أمامي أن تحرصَ عَلَى السِّلْمِ كلَّ الحِرْصِ، وَألَّا تمسَّ أحدًا من رَعِيَّتي بسوءٍ.»

فأقسمتُ أَمامه: إنني لا أُضْمِرُ إلَّا الخيرَ، وَإنني لن أُسِيءَ إلى أحدٍ كائِنًا من كان، وَوَعَدتُه بأَن أُحسِنَ مُعَاملتَهُم جميعًا.

فقال لي: «إنَّك — إذا فعلت ذلك — أرضيتني وَأرضيت شَعبي، وظفِرتَ بحُبِّنا جميعًا. ولكنني علمتُ بأنك تحمل في جيوبك قَدْرًا من الأسلحة الخطِرة التي تُزَعْزِعُ الأمْنَ في بلادنا، فهل تسمح لنا بتفتيشك؟»

فقلت له: «إنني خاضِعٌ لكل ما يأمرني به جلالةُ الإمبراطور، وإنني مستعدٌّ أن أَنْزِعَ ثوبي أمامه، وأن أُخرج كلَّ ما في جيوبي ليأخذ منه ما شاء.»

فقال لي: «إن قوانينَ الإمبراطورية تقضي بتفتيشك، ولا سبيل إلى ذلك إلا بعد أن نَثِقَ بأن هذا لا يُغْضِبُك، وقد حقَّقْتَ حسن ظني بك، وسأُرسل إليك مُفَتِّشَيْنِ ليفْحَصا كل ما تحمله من الآلات الخطرة، وَإني أَعِدُك بأن أَرُدَّها إليك يوم تَبْرَحُ بلادي، أو أدفعَ ثمنها لك كما تقدِّره أنت.»

فقلت له: «إنني مُذْعِنٌ لكل ما يأمُرُني به مولاي، وسأعمل على تحقيق كلِّ ما يُرْضِيه.»

فابتسم لي راضِيًا، وَوَدَّعني شاكرًا مسرورًا.

(٥) تَقْرِيرُ الْمُفَتِّشَيْنِ

ولَمَّا جاء الْمُفَتِّشان أخذتُهما في يدي وَوَضعتهما في جيوبي لِيرَيا كلَّ ما فيها، وبذلت لهما كل ما أرادا من مُساعدة، ولما انتهيا من الفحص طلبا إليَّ أن أُعِيدَهما إلى الأرض ثانِيَةً، فأنزلتهما — مترفِّقًا بهما — فشكرا لي، وذهبا إلى الإمبراطور ليبلِّغاه نتيجة تفتيشهما الدقيق، وقد رفعا إلى جلالته التقرير الآتي:

«وجدنا يا صاحبَ الجلالةِ الإمبراطورية — بعد أن فحصنا جيوب العملاق الهائل، وفتشناها تفتيشًا دقيقًا — ما يلي:

(١) قِطعة كبيرة من النسيج الْخَشِن تصلح أن تكون بِساطًا يكفي لفرش حجرة الاستقبال، وهي أكبر حجرة في قصر جلالتكم.

(٢) صُندوقًا كبيرًا من الفِضَّةِ عليه غِطاءٌ فِضِّيٌّ، وقد حاولنا أن نحمله أو نفتحه، فلم نستطع — لضخامته وثقله — فطلبنا إلى العِملاق أَن يفتحَه، ثم دخل أَحَدُنا في ذلك الصُّندوق — وهو مملوءٌ بِتُراب عجيب — فغاصَ فيه إلى رُكْبَتَيْهِ، فظلَّ يعْطِسُ ساعتين عطْسًا مُتواليًا، وهبَّ من ذلك الترابِ غُبارٌ قليل في الهواء، فظل الثاني يعطِس سبعَ دقائقَ كاملة.

(٣) رِزْمَةً (حُزْمَةً) كبيرة من النسيجِ الأبيض، مَطْوِيَّةً طبقاتُها بعضُها فوق بعض، وهي في طول ثلاثة رجال منا، وقد شُدَّت إلى سِلسلةٍ ضَخْمةٍ متينة منقوشةٍ عليها طلاسِمُ كثيرة نظُنها كتابة بِلُغَته التي لا نفهمها.

(٤) عمودَيْنِ أَجْوَفَيْنِ من الحديد، ينتهي كلٌّ منهما بجِذع كبير من الخشب مثبَّتٍ فيه، وفي أَحد طرفيْه قطعٌ كبيرة بارزةٌ من الحديد، هي أَشبه بنقش لم نهتد إلى فهم معناه، وفي أَسفله حفرةٌ مثبتٌ في جوفها مِسمار ضخم من الحديد.

(٥) كثيرًا من قطع معدِنية مُستديرة، مختلفة الْحُجوم والألوان، بعضها أحمرُ وبعضها أبيضُ، وهي من الفِضة والذهب، ولم نستطع أن نحملها مُتعاونَيْن إلَّا بعد عَناءٍ شديد.

(٦) سَيْفَيْنِ كبيرين، حدَّاهما مُرْهَفان، وهما في عُلبة كبيرة.

(٧) سلسلةً ضخْمةً من الفِضة، في آخِرها آلةٌ عجيبة مستديرة، نِصْفُها من الفضة، والنصف الآخر من مادة بَرَّاقة تبدو تحتها نقوش غريبة، وهي تلمع لمعانًا عجيبًا، وقد أدْناها العِملاق من آذاننا، فسمِعْنا لها حركة دائِبة تُشْبه صوت الطاحونة أو السَّاقِيَةِ، وهي — في ظنِّنا — حيوان مجهول، أو لعلَّها — إذا لم نكن واهِمَيْنِ — هي الإله الذي يعبُده، وهذا ما نُرَجِّحُه، لأنه قال لنا — وهو يَشرح فائدتها — إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من غير أن يستشير هذه الآلة، فَهِيَ تُعِينه على أداء كل أعماله، وتُعَيِّنُ له أوقاتَ النَّهار والليل.

(٨) شَبكةً كبيرة تشبه شِباكَ الصَّيادين، وهي تُفتح وتُقفل، وفيها قِطَعٌ كَثِيفة من الذهب الذي لا يُقَدَّر بقيمة.

(٩) آلةً كبيرة مثبَّتًا فيها كثيرٌ من الأعمدةِ الطويلةِ التي تشبه أعمدة فِناء القصر الإمبراطوري، ونظنها مُشطًا يرجِّل به شَعره.

(١٠) حِزامًا ضخْمًا مصنوعًا من الجلد الْغَليظ، معلَّقًا في ناحيته اليُسْرى سَيْفٌ يبلغ طولُه طول ستةٍ رجال منا، وفي ناحيته اليمنى غِرارَةٌ كبيرة مقسومةٌ قسْمَين، يَسَع كل قسم منهما ثلاثة رجال منا، وقد مُلِئَ أحدُهما بِكُراتٍ كبيرة كل كُرَةٍ منها في حجم رأْسِنا تقريبًا، ومُلئ الآخر بحبوب سُودٍ لا عِدادَ لها، وقد استطعنا أن نحمل في يدنا أكثر من خمسين حَبَّةً منها.

هذا هو تقريرُنا عَمّا وجدناه في ثِياب هذا العملاقِ الْوَدِيعِ الذي يسّر علينا عملنا، وأظهر لنا أَقْصَى ما يستطيع من التَّوَدُّدِ والتَّلطف والاِحترام.

وقد أَمْضَيْنا تقريرَنا هذا بعد أن انتهينَا من كتابته في اليوم الرابع من القمرِ التاسعِ والثمانينَ من حكم جلالتكم السعيد.»

فِليبِسن فريلوك، ومارسي فريلوك

(٦) بينَ يَدَيِ الإمبراطورِ

ولَمَّا سَمِعَ الإمبراطورُ تقرير المُفَتِّشَيْن جاء إليَّ ومعه ثلاثة آلاف جنديٍّ من فُرْسانِه المُدَرَّبين، وقد أمسكوا بِقِسِيِّهم، وتأهّبوا للحرب والنِّضال، مُتَرقِّبين أقلَّ إشارة من الإمبراطور، فلم أعبأْ بهم. والتفتُّ إلى الإمبراطور، فحَيَّاني مبتسمًا متلطفًا، وأمرني أن أُخرجَ سَيفي من غِمْدِهِ ليراه، وكان قد علاه شيء من الصَّدَأِ، بعد أن ابْتَلَّ بماء البحر، ولكنه كان — بِرَغْم ذلك — يَلمع في يدي قليلًا. وما إن رأى الأقزام سيفي مُصْلَتًا في يدي حتى علت صرَخاتهم، واشتد صِياحهم، فأمرني الإمبراطور أن أرُدَّ السيف في غِمْده، وأن أتلطف في وضعه على الأرض، فلبَّيت أَمره من فَوْري.

ثم طلب إليَّ أن أُرِيَه قِطْعَتَيِ الحديد اللَّتين أشار إليهما المفتِّشان — وهو يَعْني بذلك بُندقيَّتي ومُسَدَّسي — فقدَّمتهما إليه وشرحت له فائدتهما، وطريقة استعمالهما، بقدر ما أستطيع من التعبير، ورجوت من جلالته ألَّا يفزَع وألا ينزعِج، ثم أَرسلتُ طَلْقًا في الهواء فسقط الرجال على ظُهورهم من شِدَّةِ الذُّعْر، وكأنما سمعوا رَعْدًا قاصِفًا، ولم يَشُذَّ الإمبراطورُ — وهو أَقواهم بأسًا وأَثبتهم جَنانًا — فقد تملَّكه الفزَع، ولم يَعُدْ إلى رُشْدِه إلَّا بعد وقت، ثم قدمت إليه بندقيتي ومسدسي وكيسَ البارود، وحذَّرته أشد التحذير أَن يُدْنِيَ هذا الكيس من النّار حتى لا يلتهب البارودُ، فينسِفَ قصره ومدينته نسْفًا، فعجب من ذلك أَشد العجب.

ولَمّا قدمت إليه ساعتي، دَهِش لرؤيتها أشد الدهَش، وأمر اثنين من جنوده الأقوياء أن يعلِّقاها في عصًا ليسهُلَ عليهما حملُها على كَتِفيهما.

وقد اشتدت دهشة الإمبراطور وحَيْرته من دَقَّاتِها المتواصلة، ومن حركة عَقْرَبِ الدقائقِ، وظل يُنعم النظر فيها، ثُمَّ عرضها على أَطِبَّائِه وعلماء بلاده ليُبْدُوا رأيهم فيها، فَحاروا وتَبايَنَتْ آراؤُهم في تَعْلِيلِها، وضلَّت أفهامهم في تعرُّف حقيقتها، ثم قدَّمت إليه

القِطع الفِضِّيَّة والحديدية التي معي، ووضعت أمامه كيس نقودي، وبه تِسْعُ قطع ذهبية كبيرة وبعض قطع أُخرى صغيرة. ولَمَّا انتهى من تفحصها أعطيته مُشْطي، وعُلْبَةَ سَعوطي، ومِنديلي، وصحيفتي. وقد حمل جنود الإِمبراطور سَيفي وبندقيتي وكيس البارود والرَّصاص إلى قَلْعَةِ الإمبراطور، ثم تركوا لي ما بَقي.



وكنت قد وضعت — في جَيْب خفيٍّ — نظّارتي وبعض أشياءَ صغيرة أُخرى لا فائدةَ للإِمبراطور منها، ولا غُنْيَةَ لي عنها، وقد خَشِيت عليها التَّلَفَ أو الضَّياعَ، فلم أُنَبِّهِ المفتشيْن إليها، وادَّخرتها لنفسي لتنفعَني في وقت الحاجة حين أُغادِرُ هذه البلاد.

الفصل الثالث

(١) نُدَماءُ الإمبراطورِ

وأراد الإمبراطور — ذاتَ يوم — أن يُرَفِّه عني، ويُمْتِعَ نظري، فيَعْرِضَ أمامي — في حفلة أُنْسٍ وابتهاج — بعضَ مزايا هذا الشَّعبِ النشِيط الماهر الذي فاق جميع الشعوب التي رأيتها في حِذْقه وذكائه وَجُرأَته. وكان أعجبَ ما رأيته في ذلك الْحَفْل المحتشدِ براعةُ الرَّاقِصِين على الحِبال، وَجُرْأَتُهم النادرةُ، فقد رأيتهم يَفْتَنُّون في ضُروب الرقص على خَيْطٍ أبيضَ دقيقٍ طولُه اثنتا عشْرةَ قدمًا وإحدى عشْرة إصبَعًا.

وعلِمتُ — من عاداتهم وتقاليدهم العجيبة — أن الذين يخاطرون بأنفسهم وَيُعَرِّضونها للتَّهْلُكة في أثناء قيامهم بهذه العروضِ الخَطِرة، هم سَراةُ الأقزامِ وأعيانُهم، وأبناء الأُسر الكريمة العريقة في المجد، وأن هذه الألعاب الخَطِرَةَ هي وسيلتهم الوحيدةُ إلى بُلوغ أرقى مناصب الدولة، والْوُصول إلى منادَمَةِ الإمبراطور.

فإذا خلا مَنْصِبٌ كبير، لوفاة صاحبه، أو نَقْمَةِ الإمبراطور منْهُ — وكثيرًا ما نَقَم الإمبراطور من ندمائه لِأَتْفَهِ الأسباب — تقدَّم لِلامتحان خمسة أو ستة من الأقزام الذين يُرَشِّحون أنفسهم لهذا الْمَنْصِب، ويَرَوْن في أنفسهم القُدْرَةَ على النجاح، فيستأذِنون من الإمبراطور أن يُهَيِّئَ لهم الفرصة — لتسليته هو ورجالُ الْبَلاطِ — فإذا أَذِنَ لهم، ظَلُّوا يرقصون أمام الإمبراطورِ وحاشِيَتِه — على تلك الحِبال الدقيقة العالية — ويقفِزون إلى أعلَى، فمن فاقَ أَقْرانَهُ في القفز عليها، واستطاع أن يصِل إلى مُسْتَوًى منَ الارتفاع يَعْجِزُ أقرانُه عن بلوغه، فقد فاز بذلك الْمَنْصِب العالي الذي تَطْمَحُ إليه نفسُه.

(٢) تكاليفُ العُلَا

وكثيرًا ما أمر الإِمبراطورُ كبارَ موظَّفيه أن يرْقُصوا ويقفزوا على الحبل — مع أولئك المرشَّحين الْجُدُدِ — ليطمئنَّ الإِمبراطور على أنهم لَمَّا يفقِدوا كِفاياتِهم ومزاياهم الباهرةَ التي أكسبتهم — من قبلُ — مناصِبهم الرفيعة.

وقد لَقِيَ حَتفَه كبيرُ صَيارِفَةِ الإِمبراطورية، وراح شهيدَ مَهارته وجُرأته، وكان يستطيع أن يقفز إلى ارتفاع إصْبَعٍ فوق الحبل، وهو أقصَى ارتفاع وصل إليه أكبر موظَّف في الإِمبراطورية، ولم يصل غيره إلى مثل هذا الارتفاع من قبلُ، وقد رأيتُه بنفسي وهو يقفز على الحبل الدقيق تلك القفزةَ الخَطِرة التي عرَّضته للهلاك والتَّلف، وقَلَّما خَلَتِ التَّمْرينات من حَوادِثَ مَشْئُومَةٍ، وقَدْ أَثبت أكثرَها سِجِلُّ الإِمبراطورية.



(٣) شُهَداءُ الْمَجْدِ

وقد رأيتُ بعينَيّ ثلاثةً من هؤلاء الْمُرشَّحين هَوَوْا إلى الأرض، فكُسِرَتْ أرجلُهم، وقضَوْا بقية حياتهم مُقْعَدين.

وكان أخوفَ ما يَتَخَوَّفون منه أن يأمرَ الإِمبراطورُ وزراءَه أنفسهم بأن يُبرهنوا أمامه — مرَّةً جديدةً — على كِفايتهم ومهارتهم، وثَمَّةَ لا يدَّخِرون جُهدًا في الْفَوْقِ على غيرهم من النُّدماء، وربما سقطوا إلى الأرض من ارتفاع شاهِق، وعرَّضوا أنفسهم لأخطار جسيمة.

وقد علمت أن أحد هؤلاء النُّدماء، هوى منذُ عام وهو يقفز على الحبل، وكان لا بُدَّ من تحطُّم رأسِه، لولا أنه سقط على إحدى وَسائِدِ الإِمبراطور، فنَجا بذلك من موتٍ محقَّق.

وَثَمَّةَ نوعٌ آخَرُ من الألعاب التي يَبْهَجُ الإمبراطورُ بها نفسَه، وهو وَقْفٌ على الإمبراطور والإمبراطورة والوزراء، وذلك أن يضع الإمبراطور فوق مائدته ثلاثة خُيوطٍ من الحرير — غايةً في الدِّقة — طولها سِتُّ أصابعَ، أوَّلها قِرْمِزيٌّ، وثانيها أصفرُ، وثالثها أبيضُ، وهذه الخيوط الثلاثة هي جوائز يمنحها الإمبراطور من يَمْتازُ على غيره بالمهارة والْجُرأة. فإذا بدأت الحفلة — في قاعَةِ الاستقبال الكبيرة بالقصر الإمبراطوري — ظَلَّ المُتَبارون يَفْتَنُّون في شَتَّى ضُروب القفز والرقص بمهارة لم أَرَ لها مثيلًا في أيِّ شعب عرَفتُه في كل أسفاري ورِحْلاتي الكثيرة السابقة.

(٤) أَنْواطُ الْجَدارَةِ

وكان الإمبراطور — في بعض أسْمارِه — يأخذ بطرَفَيْ عَصَوَيْنِ مُتَوازِيَتَيْنِ في الفضاء، ويُمْسك رئيسُ وزرائه بالطرَفَيْن الآخرَيْن، ثم يَقْفِزُ عليهما الْمُتَبارون، ولهم في هذه اللُّعبة أفانينُ شتَّى، وهي تنتهي بمكافأة الفائز الأول بالخيط القِرْمِزيِّ، والفائز الثاني بالخيط الأصفر، والفائز الثالث بالخيط الأبيض.

وهذه الخيوط هي أَوْسِمَةُ المجد والفَخار في تلك البلاد، ويتخذون منها حَمائِلَ سُيوفهم، أو يجعلونها زينةً لهم، وإشعارًا للعامَّة بما أَحْرَزوه من أنْواطِ الجدارة وشاراتِ المجد.

(٥) بين ساقَيْ «جَلِفَر»

وفي ذات يوم فكَّر الإمبراطورُ في وَسيلة فَذَّة للتسلية، فحشد فَيْلَقًا كبيرًا من جيشه، وأمرني أن أَقِفَ فارِجًا ساقَيَّ بِقَدْرِ ما أستطيعُ، ثمَّ أمر جيشه أن يَمُرَّ من فُرْجَةِ ساقَيَّ لِيَعْرِضَهُ أمامَه، فمرُّوا صُفوفًا، في كل صَفٍّ منها أربعةٌ وعِشرون راجِلًا، تَلِيها صُفوفُ الفُرسان، في كل صفٍّ منها ستةَ عشرَ فارسًا، ثم تَبِعها رجال الموسيقى، فَحامِلو الأعلامِ الخفَّاقة، فحامِلو الأسِنَّةِ والحِراب المرفوعة.

وكان ذلك الجَيشُ مكوَّنًا من ثلاثةِ آلاف راجِلٍ وألفِ فارس.

وقد أمرهم الإمبراطور أن يَلْزَموا جادَّةَ الأدب، وأَلَّا تَبْدُوَ منهم — في أَثناء سيرهم — أَيَّةُ إشارةٍ تدُل على السُّخْرِيَةِ، فإذا خالفَ أحدهم أَمر الإمبراطور كان جزاؤُه القتل.



وما كانت هذه الأوامرُ الصَّارِمَةُ لتمنعَ بعضَ الجنود والضباط الفضُوليِّينَ من أن يرفعوا أبصارهم إليَّ — وهم يمرُّون من فُرْجَةِ ساقَيَّ — ويضحكوا ساخِرين أو مدهوشين.

(٦) قُيودُ الحرِّية

وبعد انتهاء هذه الحفلة، أَرسلتُ عدة مُذكِّراتٍ ألتمُس بها حريتي، وقد حَوَّلها الإِمبراطور على مَجْلس الشورى ومجلس الوزراء، فوافقوا على ذلك كلُّهم، ولم يَشُذَّ عنهم إلا وزيرُ الحرب، فقد عارض أشدَّ المعارضة في أَن أُمْنَحَ الحريةَ. وكان هذا الوزيرُ — لسوء حظي — محبوبًا من الإِمبراطور متمتعًا بثقته — لمهارته وكِفايته في الفنون الحربية — وإن كان ضيِّقَ الفِكر في شئون الحياة والاجتماع.

وقد طلب ذلك الوزيرُ من الإِمبراطورِ أن يضع بنفسه الشروط التي يراها ضرورية لإِطلاق سراحي، فأجابه الإِمبراطور إلى طِلْبَتِهِ. وقد أَتَمَّ الوزيرُ وضع هذه القُيودِ الثقيلةِ

مؤيَّدة بالعهود والمواثيق، حتى يأمنوا جانبي حين أظْفَرُ بحريتي. وكان مع الوزير كثيرٌ من سَراةِ الأقزام وأعيانِهم، وقد طلبوا إليّ أن أُقْسِمَ أمامهم إنني لن أُخْلِفَ وَعْدًا، ولن أَنْكُثَ عهدًا، ولن أُخِلَّ بشرطٍ من هذه الشروط كلِّها، إذا فَكُّوا عني قيودي، وأطلقوا لي حريتي. فأَقسمتُ أَمامهم إنني سَأُنَفِّذُ كل شروطهم بدقَّة وأمانة، فلم يكتفوا بهذا القسم، وطلبوا إليَّ أن أقطع على نفسي عهدًا وثيقًا بذلك، على طريقة بلادهم في إعطاء العهود والمواثيق. ورسموا ليَ الخُطَّةَ التي أَتْبَعُها في إقْناعِهم بحسن نِيَّتي، وإذعاني لأمرهم. وكانت طريقتهم في أخذ العهُود والْمَواثيقِ عجيبةً حقًّا، فقد أَمروني أَن أَقبِضَ على إبهام رجليَ اليمنى بيدي اليسرى، ثم أَضعَ الإصْبَع الوُسْطَى — من يدي اليمنى — فوق رأسي، والإِبهامَ على طرف أُذُني اليمنى، فلم أتردَّدْ في تَلْبيةِ كلِّ ما طلبوه مني.

(٧) قَرارُ الإمبراطورِ

ولقد عَجِبْتُ من ذلك القرار الذي أعطَونيه، وإلى القارئ نصَّه:

«نحن جولباستو إمبراطور «ليليبوت» — أعظم وأقوى الناس، وملاذ اللَّاجئين، ومُرْهِب الأعداء، وأقوى ملوك الدُّنيا، الذي يمتد ملكه ستةَ أَميال مستديرة إلى أَطراف الكرة الأرضية: ملك الملوك، وأعظم العظماء، وجَبّار الجبابرة، الذي تكاد قَدَماه تَخْرِقان الأرض من ثِقَلِهما عليها، ويكاد رأسُه يلْمِس الشمسَ لطول قامَتِه وارتفاعها، والذي تَرْجُفُ منه الملوك إذا رأَتْهُ، والذي يُقَدِّسُه شعبه، لأنه محبوبٌ كالرَّبيع، لطيف كالصيف، مُخْصِب كالخريف، مَرْهوبٌ كالشتاء، سِلْمٌ للْأَولياء، حَرْبٌ على الأعداء — فَرَضْنا على ضَيْفِنا العِملاق ما يأتي:

(١) ألَّا يخرجَ بَتاتًا من أرضنا الفسيحة من غير إذن منا مختومٍ بخاتَمنا الكبير.

(٢) ألَّا يدخل عاصِمَتنا الآهِلَةَ بالسكانِ من غير أن ينْذِرَ الأهالي بذلك قبل ساعتين من دخوله العاصمةَ، ليَلْزَموا مساكِنَهم.

(٣) أن يَقْصُرَ تَنَزُّهَهُ وسيْرَه على طُرُقِنا الفسيحة الكبرى، وألَّا يَجُولَ أو ينام في أي حَقْلٍ مزروع، حتى لا يُتْلِفَ ما فيه من حَرْثٍ.

(٤) أن يحْرِصَ كلَّ الحِرص على أَلَّا يَطَأَ بقدمه جسمَ أيّ فرد من رعايانا، أو خَيْلِهم أو عَرَباتِهم في أثناءِ سيره في طريقه، وألَّا يُمسكَ بيده أيَّ إنسان من غير إذْنِه ورِضاه.

(٥) أن يحمل البريدَ ويوصِلَه إلى المسافاتِ البعيدةِ، كلَّما طلبنا إليه ذلك، وأن يقوم بهذا العمل ستةَ أيام في كل قَمَرٍ (شهْر) من الأقمار.

(٦) أن يُحالِفنَا، ويكون عَوْنًا لنا على أعدائنا الذين يقطنون بجزيرة «بليفسُكو»، وألَّا يدَّخر وُسْعًا في تدمير أسطولهم الذي يُعِدُّونه الآن لِغَزْوِ بلادنا.

(٧) أن يُعِينَ عمَّالنا ويُساعدَهم — في أوقات فَراغه — على حمل بعض الأحجار الضَّخْمة التي يبنون بها أَسوارَ حديقتنا الكبرى، وجُدْرَانَ دُورِنا الحُكومية.

(٨) أَن يُقَدَّمَ له ما يكفيه من الغِذاء — بعد أَن يُقسمَ على احترام هذا الدستور — وأَن يكون غِذاؤه في كل يوم مِقدارًا من اللحم والسمك يكفي لإطعام أَلفٍ وثَمانِمائَةٍ وسبعينَ وأَربعةٍ من أفراد رعِيَّتِنا، وأَن يكون حُرًّا في مقابلة شخصنا الإمبراطوري، وأَن يُمنَحَ ما نشاء من المِنَحِ.

صدر هذا القرار — عن قَصْرنا — في اليوم الثاني عشَرَ من القمرِ الواحِدِ والتِّسعين من حكمنا.»

(٨) حُرِّيَّةُ «جَلِفَر»

وما إن أَتْمَمْتُ القَسَمَ وأَمْضَيْتُ هذه الشروطَ — وأَنا مسرورٌ بالظفرِ الْوَشِيكِ بحريَّتي، برغْم ثِقَلِ هذه القيود — حتى فَكُّوا سَلاسِلي وأغْلالي وأَصبحتُ منذ تلك الساعة حُرًّا طَليقًا.

وقد جاء الإمبراطور نفسُه، وتلطَّف بي، وهنَّأَني بحريتي، فركعت أَمامه ضارِعًا شاكِرًا، فرجا مني — متلطفًا — أَن أَقِفَ، فأذْعَنْتُ وشكرتُ له عطفَه الذي غمرني به.



ولعل أَعجبَ ما أَدهشني من تلك الشروط — التي وضعوها في ذلك الدُسْتورِ الذي أَمْضَيْتُه — أَنهم أَمروا لي بطعام يكفي لتغذية أَربعة وسبعين وثَمانِمائةٍ وأَلفِ فردٍ منهم.

وقد سألتُ صَديقًا من خُلَصائي الذين اصْطَفَيْتُهم من هؤلاء الأقزام: كيف عَرَفوا أَن هذا القدر بعينه من الطعام يَسُدُّ حاجتي من الغِذاء؟

فقال لي: «إن عُلَماءَ الرِّياضَةِ قد قاسُوا قامَتي إلى قاماتِهم، وحَسَبوا ضَخامَتَها، فوجدوا أَن نِسْبَةَ حجمي إلى أَحْجامهم كَنِسْبةِ أَلفٍ وثمانِمائة وسبعين وأَربعةٍ إلى واحِدٍ؛ فقدَّروا أَن الغذاء الذي يكفي هذا العددَ من الناس يكفيني وَحدي!»



ومن هذا يتبين القارئُ بَراعَةَ هؤلاء الأقزام، وسَعَةَ علمهم، وحُسْنَ تصرُّفِهم، ودِقَّةَ حسابهم وتقديرهم.

الفصل الرابع

(١) عاصِمَةُ «ليليبوت»

كان أولَ ما طَمَحَتْ نفسي إلى رؤيته — بعد أَن ظفِرت بحريتي — هو أن أَرى «ميلوند» قَصَبَةَ إمبراطورية «ليليبوت»، وما كاشَفْتُ الإِمبراطورَ بهذه الرغبة حتى أَجابني إليها — بلا تردُّد — بعد أَن أَوْصاني باليقَظَة والاِنتباه في أَثْناء سَيْرِي في تلك العاصمة، حتى لا أَطَأَ بقدَمي فردًا من أفراد شعبه، أَو مسكنًا من مساكنهم الصغيرة؛ فوعدْتُه بتحقيق رغبته، وتنفيذ أَوامره، وَفْقَ ما يُريد، فأَمر جلالته أَن يُذاعَ في مدينته نبأُ زيارتي، حتى يَلْزَم أَهْلُوها بُيوتَهم.

وكان ارتفاعُ السُّورِ المُحيط بالمدينة قدمين ونصفَ قدم، وسُمْكُهُ إحدى عشْرةَ إصبَعًا؛ فكان من اليسير على أيِّ عربة من عرباتها أَن تسير فوق هذا السور المحيط بالمدينة، من غير أَن تتعرض للخطر، وقد شيّدوا على هذا السور الضَّخم عدة بُروج متينة البناء، بين كل بُرْجَين منها عَشْر أَقدام.

(٢) في شَوارِعِ المدينةِ

وما وَصَلْتُ إلى الباب الغربيِّ حتى مررت من فوْقه، ثم ظَلَلْتُ أَجولُ في الشَّارعين الكبيرين، وأَنا شديد الحذر والانتباه حتى لا أطَأَ بقدمَيَّ أَحدًا من الأقزام الذين دَفَعهم الفُضول إلى الخروجِ من مساكنهم، ومُخالفةِ أمر الإِمبراطور، بعد أَن حذَّرهم عَواقِبَ الخروج في أثناء تَجْوالي بالمدينة.

وكنت أُنْعِمُ النظر فيما يحيط بِي، وأُقدِّر كل خُطوة أَخْطوها حتى لا يَمَسَّ جسدي أو ملابسي نافِذَةً من نوافِذِ منازلهم، فتهوِيَ — بمن عليها — إلى الأرض.

وكانت نوافِذُ المنازل غاصَّةً بالناس الذين كانوا يَرْقُبون رؤيتي منذ زمن طويل بشوق شديد، وكانت سُطوحُ البُيوت التي مررت عليها مُزْدَحِمَةً لا تكاد تجدُ فيها منفذًا من شدَّة الزحام. وقد أيقنتُ — حينئذ — أن سكَّان تلك المدينة الكبيرة لا يقلون عن خَمْسِمائة ألف نَسَمَةٍ.

ورأيت من هنْدسة المدينة — في شوارِعِها وبُيوتِها وقصورِها — ما أدهشني، فقد بُنِيَت المدينة على رُقْعَةٍ من الأرض على شكل مربَّع، طولُ كل ضِلْعٍ من أَضْلاعِه خَمْسُمِائةِ قدم. وكان يخترقُ المدينة — كما قلت — شارعان كبيران يتقاطعان في منتصَفها فيقسمان المدينة أربعة أحياءٍ مُتساويةً. وكان عَرْضُ كلِّ شارع منها خَمس أقدام. وفي المدينة — غير ذلك — شوارعُ كثيرة لا تحصى، وهي طُرُقٌ صغيرة لم أَستطع أن أمرَّ بها لضيقها، فقد كان عَرْضُها من اثنتي عشْرةَ إصْبَعًا إلى ثمانيَ عَشْرَةَ إصْبَعًا. وكانت منازِلُ المدينة مؤلَّفةً من ثلاث طِباقٍ أو أربع. وفيها كثير من الدَّكاكين والأسْواقِ المنظَّمة، وبها مَسْرَحٌ للأُوبرا وآخَرُ للكومِديا.

(٣) قَصْرُ الإمبراطورِ

وكان قصر الإمبراطور يَتوسَّط المدينة، حيث يلْتقي الشارعان الكبيران، وهو أفخم بِناءٍ في تلك البلاد، يَكتَنِفه سُورٌ ارتفاعه ثلاثٌ وعشرون إصْبَعًا، وهو يَبعُد عِشرين قدمًا عن بناء ذلك القصر. وقد أَذِنَ لي جلالة الإمبراطور أن أَمرّ من فوق هذا السُّور حتَّى أَشهَد قصره من جميع نَواحِيه، وكان الفِناء الخارجيُّ على شكل مُربَّع ضِلْعُهُ أربعون قدمًا، وهو يحتوي فِناءَيْن آخريْن، في ثانيهما غُرَفُ جلالة الإمبراطور. وقد أعجبني حسْنُ نظامِها وتَنْسيقُها، ولم يكن مِنَ اليسير عليَّ أن أراها، فقد تكبَّدتُ — في سبيل رؤيتها — كثيرًا من العَناء، لأن أكبرَ بابٍ فيها لا يَزيد ارتفاعه على ثماني عشرة إصْبَعًا، ولا يزيدُ عرضه عن سَبْع أَصابِعَ. وكان ارتفاع جِدار الفِناء الخارجي نحو خمس أقدام. وكان من المُحال أنْ أعْلُوَ أي جِدار من هذه الْجدُرُ حتى لا أُحَطِّمَه، فقد كان سَمْك السُّور أربَع أصابِعَ على أن الإمبراطور كان شديد الرغبة في أن أرى فخامة قصره، ولم يكن لي إلى تحقيق رغبته من سبيل، إلا بعد ثلاثة أَيام ظَلِلْتُ أعمل — خِلالَها — في قَطْع بعض أشجار الحديقة

الإِمبراطورية، وهي على مسافة مائة ذِراعٍ من المدينة، وقد استطعت أَن أَصنع من هذه الأشجار كُرْسِيَّيْن من الخشب، ارتفاع كلٍّ منهما ثلاث أقدام، وقد جعلتُ كليهما متين الصُّنْع، حتى يَتَحَمَّل ثِقَلَ جِسْمي من غير أن يتحطَّم.



(٤) أُسْرَةُ الإمبراطور

وفي اليوم الرابع صدر أمر الإِمبراطور بتحذير شَعبِه الخروجَ من بُيوتهم حتى لا يعرِّضوا أنفسَهم للهلاك، ثم عُدت إلى المدينة ومعيَ الكرسِيَّان. وما زِلتُ سائرًا في طريقي إلى القصر الإِمبراطوريِّ، وأنا أتخطَّى المنازل والبيوت التي في طريقي حتى بلغتُ القصر. ولَمَّا وصلت إلى فِنائه الخارجيِّ صعِدت إلى أحد الكرسِيَّيْنِ، وأمسكت بالثاني في يدي ووضعته فوق

سطح القصر، ثم قفزْت في الفَضاء — الذي بين بُرْجَيِ القصر — قَفْزةً شديدةً، فنزَلت إلى الأرض دون أن أَمَسَّ القصر بِسُوء، وكان عَرْض الفضاء الذي بين البُرْجَيْنِ ثمانيَ أقدام.

وقد كان من اليسير عليَّ — بعد ذلك — أن أتخطَّى أعلَى الأَبْنِيَةِ بعد أن صنعتُ الكرسيين، فقد كنت أصعد على الكرسِيِّ الأول، ثم أضعُ الثانيَ فوق القصر وأقفِز بخِفة — فوق الهواء — إلى الجهة الأخرى، ثم أجذِب الكرسيَّ الأول بشِصٍّ أعددته لهذا الغرض، وهكذا سَهَّلَ عليَّ هذا الاختِراعُ أن أَصل إلى الفِناء الداخلي، حيث رقَدت على جَنْبي لأرى نوافِذَ الطَّبقة الأُولى التي تركوها مفتوحة، ليتسنَّى لي رؤيةُ ما في داخلها. وقد رأَيتُ أَبدع نظام وأَكمل ترتيب وصل إليهما عقلٌ مفكِّر، ورأَيت الإمبراطورة وبناتِها الأميراتِ الصغيراتِ، وهنَّ في غُرَفِهِنَّ — ومن حولهنَّ الخدم — وقد ابْتَسَمْنَ لي ابتسامة الإِعجاب والسرور برؤيتي، وسلَّمَتْ عليَّ الإِمبراطورةُ سلامَ الْمُرَحِّبِ الْمُبتهج بزيارتي.



وليس في استطاعتي أَن أَصف لك كل ما رأَيته في ذلك القصر العظيم من البدائِع والطُّرَفِ، فإِن ذلك يحتاج إلى سِفْرٍ ضخْم يصف هذه البِلادَ ويشرح تاريخها — منذ نشأتها قبل عدة قرون — ويبيِّن نباتَها وحيوانَها وأخلاق أهلها وعاداتِهم، وما إِلى ذلك مما تَحْويه تلك البلادُ من الغَرائبِ والْمُدْهِشات. وقد أَقَمْتُ فيها تسعة أشهر، كانت كافية لدرس الكثير من خصائصِ هذا الشعب النادر في ذكائه ونشاطه.



(٥) المُنازعاتُ الداخلية

وبعد خمسةَ عَشَرَ يومًا من حصولي على حريتي، جاءني «سكرتير» وِزارة الخارجية — ومعه خادمه — وطلب أن يُسِرَّ إليّ بحديث مهم، فأردت أن أرقُد على الأرضِ لِيَكونَ في مستوَى أذني فيسهُلَ عليَّ سماعُ حديثه، ولكنه آثر أن أحمله بيدي إبَّان هذا الحديث. وقد بدأ حديثه بتهنئتي بِنَيْلِ حريتي، ثم قال لي: «إنني لأخْجل يا سيدي أن أذكر لك أني كنت من العامِلين علَى ظَفَرك بِحُرِّيتك، فلا يتَسَرَّبْ إلى ذِهنك أنني أَمْتَنُّ عليك بهذا الْجُهد الضَّئيل الذي بذلتُه في سبيلك، على أنني أعتقد أنه لا فَضْلَ لأحد عليك، فلولا أن الدولة في حاجة شديدة إلى قُوَّتك وجهودِك، ولولا أنهم يعلِّقون بِكَ أكبر الآمال، لما أطلقوا لك حريتك بمثل هذه السرعة، ونحن كبيرو الثقة في كَرَمِك وإخلاصك، وعملك على إنقاذنا من أخطارٍ، نَأْمُلُ أن تُوفّق — بفَضل قُوَّتك وشجاعتك — إلى القضاء عليها.»

فأظهرت له أنني مستعدٌّ أَتمَّ الاِستعداد لتلْبِية كل ما يأمرونني به، وأنني لا أَدَّخر وُسعًا في خدمة الدولةِ، وتحقيق رغَباتِها وآمالها. ثم سألتُ عما يُريده مني، فقال: «إن بلادَنا قد أَصبحت — لنشاط أهلها وذكائهم — من أَجمل بلاد العالم وأَنْضَرِها. ولكنها لَمْ تَخْلُ — على ذلك — من مُنازَعاتٍ وانْقسامات داخلية، وأَخطار خارجيةٍ، وهاتانِ العِلَّتان هما مصدر قلقنا وانزعاجنا جميعًا، فقد نشأ في بلادنا — منذ سبعين قَمَرًا — حِزْبان متعارِضان: حزب «الترامكسان» وحزب «السلامكسان»، ومعنى اللفظة الأولى: حزب الأَعْقابِ الْمُرْتفعة، ومعنى اللفظة الثانية: حزب الأَعْقابِ الْمُنْخفضة. وكلاهما يزعمُ

أنه على حق. وأنا — وإن كنت أرى أن ذوي الأعقاب الْمُرْتفعة هم حزب الكثرة — أعتقد أَن المصلحة العامة تقضي باحترام ما قرره إمبراطورنا، تلافيًا للخلاف، ومحافَظةً على وَحْدَةِ البلاد: فقد قرر الإِمبراطور حين وَلِيَ الأمر أَلَّا يستعمل أَحدًا — في أي عمل من أَعمال حكومته — إلَّا إذا كان من ذَوِي الأعقاب الْمُنخفضة، ولعلك لاحظت أن عَقِبَيْ جَلالةِ الإِمبراطور هُما أَكثر الأعقاب انخفاضًا.

وقد بَلَغت الْمُنافسة بين رجال الحزبين حَدَّ المخاصمة، فأصبح كل فريق يَمْقُتُ الآخر، ولا يَرْضى لنفسه أن يُحَيِّيَهُ أَو يُكَلِّمَهُ.

ونحن نعلم أن حزب «الترامكسان» — أَي حزب الأعقاب الْمُرتفعة — يَكثروننا عددًا، ولكننا أقوى منهم، لأن سلطان الحكم في أيدينا.

ومما يُؤْسِفنا أشد الأسف أَننا نخشى أَن يكون صاحب السُّمُوِّ الإِمبراطوري — وليُّ العهد — ممن يميلون إلى حزب الأعقاب المرتفعة، ويُرَجِّحُ لنا ذلك الْمَيْلَ أَن إحدى عَقِبَيْهِ أَكثر ارتفاعًا من الأخرى، فهو لذلك يَعْرَجُ في مِشْيَتِه قليلًا.

وقد زاد على هذا الانقسام الداخلي أَنَّنا مُهَدَّدون بِحَرْبٍ خارجية من سكان جزيرة «بليفُسكو»، التي تَلِي إمبراطوريتنا في القوة، فهي — إذا استثنيت إِمبراطوريتنا — أَقوى إمبراطورية في العالم.

وقد كنا نسمع أَن في العالم إمبراطورياتٍ أُخرى وممالكَ ودُوَلًا لم نرها، وأَنهم أَناسِيُّ مِثْلُنا، ولكنهم أَضخم وأَكْبرَ أَجسامًا منك، وهو كلام أَقرب إِلى الخُرافَةِ منه إلى الحقيقة، وقد شكَّ في صِحَّته فلاسِفَتُنا وخَطَّئُوهُ.

ولقد حاروا في تَعْليلِ ضخامةِ جسمك، وتضارَبَتْ أَقوالهم في ذلك، ولم يُصَدِّقوا أَنك من سكان هذا العالم، فهم يعتقدون أَنك هابط علينا من القمر، أَو نازل إلينا من أَحَدِ النجوم، فإِن مِائةَ رجل — في مثل حَجْمِك — يأكلون — في زمن يسيرٍ — كلَّ ما في هذه الإِمبراطورية العظيمة من فاكِهة وحَبٍّ وماشِيَة.

على أن مُؤَرِّخينا لم يذكروا في أسفارهم — منذ ستَّةِ آلافِ قمر — أن في الدنيا كُلِّها بلادًا غير إمبراطورية «ليليبوت» وإمبراطورية «بليفُسْكُو» الْمُجاورَةِ لنا. وقد دارت رَحَى الحربِ بين هاتين الإِمبراطوريتين أكثرَ من ثلاثين قَمَرًا، وكانت حربًا عنيفة طاحِنَةً.

(٦) مُشْكِلَةُ البَيْضَةِ

وكان سببُ هذه الحرب خِلافًا جَوْهَرِيًّا نَشِبَ بين الإمبراطوريتين، وهو ينحصِرُ في الطريقة التي يجب أن يَتَّبِعَها الشعب في كسر بَيْضَة الدَّجاج؛ فَقد اتَّفق الناس جميعًا — منذ أقدم عصور التاريخ — على أن يَكْسِروا البيضةَ — إذا أرادوا أكلَها — من طَرَفِها الْمُسْتَعْرِض، ولكن جَدَّ صاحب الجلالة إمبراطورِنا الحالي، وقع له حادث في طفولته غَيَّر هذا النِّظام من الضِّدِّ إلى الضد، فقد قُطِعَتْ إحدى أصابِعِه، وهو يَكْسِر البيضة.

وثَمَّةَ أصدر والدُهُ أمره إلى جميع رعاياه أن يكسِروا البيض من الطرَف الْمُسْتَدِقَّ، ووضعَ أقْصَى عُقوبة لمن يخالِفُ هذا الأمر، فتذمَّرَ الشعب وغضِب، وثار ثَوْراتٍ عنيفةً على القانون الجديد، وقد ذكر لنا مُؤَرِّخو ذلك العهدِ أن الشعبَ قد ثار لذلك سِتَّ ثورات، انتهت بقتل جَدِّ الإمبراطور، وخلع والد الإمبراطور عن العرش.

وقد كان لِأَباطرة «بليفُسكو» أكبرُ يَدٍ في إثارة الفِتَنِ الداخلية، وكانوا يَفْتَحُون بلادهم لزُعَماء تلك الثورات الهاربين، ويحَفِزُونهم إلى إذْكاءِ نارِ الْفِتْنَةِ إذا خَبَتْ. وقد ذكر لنا الْمُؤَرِّخون أن كثيرًا من الناس قد آثروا الموت على أن يخضعوا لهذا القانون الجديد، الذي يَحْتِمُ كسر البيضة من طرَفها الْمُسْتَدِقِّ. وقد هلك في هذه الفتن أكثرُ من خمسةَ عشرةَ ألف ثائر. وألَّف الكُتَّاب والباحثون — في هذا الموضوع الخطير — مئات من الكتب والأسفار الضخْمة، وأرسل إلينا أباطرة «بليفسكو» سفراءهم يتَّهموننا بأننا قد اقترفنا أكبر جريمة عرفها التاريخ، وانتهكنا الأُصُولَ السياسية، وأحدثنا حَدَثًا كبيرًا في شَريعَةِ نَبِيِّنا العظيم «دُسترج»، وخالفنا نَصَّ كتابه الْمُقَدَّسِ. على أن رجال الدين عندنا لا يَروْن في ذلك القانون إلَّا تطبيقًا طبيعيًّا لِنَصِّ الآية التي جاءت في كتاب هذا النبيِّ، وهي: «على كل مؤمن أن يكسِر البيض من الطَّرَف الذي يراه أكثر ملاءمةً له.»

والرأي عندي أن يُترك لكل واحد أن يقرر ما يراه صالِحًا له، أو أن يَتْرُك الناسُ تقرير ذلك الحق إلى الإمبراطور. ولكن كبار الباحثين الذين نُفُوا من هذه البلاد يَرَوْن رأي إمبراطور «بليفسكو»، وقد لَقِيَتْ آراؤُهم في بلادنا كثيرًا من الْمُساعدةِ والعطفِ والتأييدِ، ودار — بسبب ذلك — تلك الحربُ العنيفةُ الطاحِنَةُ بين الإمبراطورِيَّتَيْن سِتَّةً وثلاثينَ شهرًا، وكانت سِجالًا بيننا وبينهم. وقد خَسِرْنا فيها أربعين سفينةً كبيرةً من أُسْطُولنا، وكثيرًا من السُّفُنِ الصغيرة، كما خسِرنا ثلاثين ألفًا من أَشجع الملَّاحين والجنودِ الْمُدَرَّبين.

ولم تكن خَسارَةُ العدوِّ بأقلَّ من خَسارتنا وقد علمنا أَنهم يُعِدُّون الآن أُسطولًا هائلًا لِغَزْوِ شَواطِئِنا.

وقد قلت لك: إنَّ صاحِبَ الجلالة إمبراطورنا العظيم قد وضع ثِقَتَه كلَّها فيك، وأيقن أن النصر سيكون حلِيفه — من غير شك — إذا ضَمِن تأييدَك لفِكرته، وقد أرسلني إليك لأتعرَّف رأيك في ذلك، وأُخْبِرَه به.»

فقلت له: «أَرجو أَن ترفع إلى مولايَ الإمبراطور أَنني جنديٌّ من جنوده، وأَنني مستعدٌّ لِمُحاربة أعدائه وَبذْلِ نفسي — دِفاعًا عن شخصه الْمُقَدَّسِ، وعن إمبراطوريته العظيمة — ولست أُحْجِمُ عن إراقَةِ آخِرِ قَطْرَةٍ في دَمِي في سبيل نُصْرَتِه.»

ففرِحَ «السَّكرتيرُ» بجوابي، وودَّعني شاكِرًا مسرورًا..

الفصل الخامس

(١) أُسْطُولُ الأَعْداءِ

تَقَعُ إمبراطورية «بليفُسكو» في الشمال الشرقيِّ من إمبراطورية «ليليبوت»، ولا يفصلهما إلا قَناةٌ عَرضها نحوُ أَلف وثمانمائة مترٍ.

ولم أَكن قد رأَيت هذه القناة من قبلُ، فلمَّا أَرشدوني إلى موقعها، تحاشَيْت جُهدي أن أَظْهَرَ في تلك الناحية أَو أَقترب منها، خَشْيَةَ أَن يراني أَحد من جيشِ العدوِّ، وقد عزمت على تنفيذ خُطة هجومي سرًّا.

وقد أَحْكَمْتُ خُطَّةَ الْغَزْوِ إِحْكامًا، وأَسْرَرْتُ تفاصيلها إلى الإمبراطور — بعد أَنِ اطَّلَعْتُ على التَّقارير الحربية السِّرِّيَّة التي كتبها طَلائِعُ الجيش وعُيونُه — فابتهج الإمبراطور بخُطَّتِي الرَّشيدة، ودعا الله أن يوفِّقني إلى النجاح في تحقيقها، حتى يَتِم لهم النصرُ الوشيكُ.

وكنت قد علمت من التقارير الحربية أَن أُسطول الأعداء قد تمَّ إعداده، وأَصبح على أُهْبَةِ الحرب والغزو، وأَنه يترَقَّب أَول فرصة سانحة ليغزوَ بها هذه البلاد. ومتى اعتدل الهواءُ تَحَرَّك هذا الأُسطول الكبيرُ لِمُهاجمة الإمبراطورية، والفتك بجيشها، وتدمير قِلاعِها وحُصونِها.

وقد علمت — من الْمَلَّاحين الخُبَراءِ — أَن مُتَوَسِّطَ عُمْقِ تلك القناة هو سِتُّ أَقْدام.

(٢) وَسائِلُ الْفَوْزِ

فَانْسَلَلْتُ خُفْيَةً إلى الشاطئ الشمالي الشرقي تُجاهَ «بليفُسكو»، وقد عزمت على الاستيلاء على أُسطول الأعداء، ثم انْطَرَحْتُ خَلْفَ تَلٍّ، وأَخرجت من جيبي مِنظاري، فتبيّنت أُسطول العدو بِجَلاء ووضوح ورأيته مُؤَلَّفًا من خمسين سفينة حربية، وعددٍ لا يُحْصَى من سفنِ النقلِ.

فرجَعتُ أدراجي، وأمرت بِصُنْع عدد كبير من الحبال الْمَتِينة بقدر ما تَيَسَّر لهم صُنْعه، كما أمرت بعمل شصوص من الحديد مثبَّتة في آخر هذه الحبال، ثم جعلت كل ثلاثة من الحبال معًا، لتكون أكثر متانةً، وضَمَمْت كل ثلاثة شُصُوصٍ معًا لتكون شِصًّا واحدًا قويًّا.

وما إن انْتَهَوْا من ذلك، حتى عُدت إلى الشاطئِ الشماليِّ الشرقي، ونَزَعْتُ حذائي وجَوْرَبي وثيابي الخارجية كلها، وظللْت أَخُوضُ الماء — بأشد سرعة أستطيعها — حتى وصلت إلى الْغَمْرِ، فسَبحت نحو ثلاثين مترًا، ثم استقرَّت قدمي على القاعِ، ولم تَمُرَّ بي نِصْفُ ساعَةٍ حتى وصلت إلى أسطولهم.

وما أشدَّ جزعَ الأعداء ورُعْبَهم حين رأَوْني أمامهم، فخُيِّل إليهم أن عِفْرِيتًا من الْجِنِّ قد جاءهم ليفتك بهم، واشتد رُعْبُهم من رؤيتي، فقفزوا جميعًا من سفُنهم كالضّفادِع ولاذوا بالفِرار، ولا أحسبهم يَقِلُّون عن ثلاثينَ أَلَف جُنديٍّ.

(٣) مَعْرَكةٌ حامِيَةٌ

أمّا أنا فلم أُضِعْ لحظةً واحدةً سُدًى، فألقيت الشُّصوصَ على سفن العدو، وما فعلتُ حتى قَذَفوني بِسِهامٍ كالمطر — في وجهي ويدي — وكان عدد تلك السهام الدقيقة يقدَّرُ بالأُلوف، فاشتد أَلَمِي لِوَقْعِها، وارتبكْت أشد الارتباك، وكان أَخوَفَ ما أخافه أن تُصيب السِّهام عينيَّ فتفقأهما، ولكنني كنت مُقدِّرًا وُقوعي في مثل هذا المأزق من قبلُ، فأعددت له العُدة حتى لا أُفاجَأ به، وثمة أخرجت نْظارتي من جيبي الصغير ووضعتها على عينيَّ، وأَلْصَقْتها بأَنْفي إلْصاقًا — حتى لا ينفُذَ إلى عينيَّ شيء من سِهامهم — فأصبحت تلك النظارة كالدّرْعِ الواقِيَةِ لعيني. وما زلت أُواصل عملي بجِد واجتِهاد — والسهام تُمْطِرُني من كل ناحية — حتى وضعت الشصوص كلَّها في سفن الأعداء. وما إن انتهيتُ من ذلك

حتى شَدَدْتُها بكل قوتي، فلم تتزحْزَحْ قِيدَ شِبْرٍ عن مكانها، فعلمت أن سفُنَهم مُثَبَّتَةٌ بالعَقاقِيفِ، فقطعت — بمُدْيتي — كل الحِبال المشدودة إليها في وقت وَجِيزٍ.

(٤) انْتِصارُ «جَلفر»

وما انتهيتُ من ذلك حتى سَهُلَ عليَّ أن أَجُرَّ خمسين سفينَةً من أكبر السفن، دون أن ألقَى في ذلك أيَّ مَشَقَّة.

أما أهل «بليفسكو» فقد استولى عليهم الذُّهول، وتملكت نفوسَهم الْحَيْرةُ، ولم يعرفوا من أين جئت، وإلى أين أَقصِد، ولماذا قطعت حبال أسطولهم، وأيُّ فائدة تعود عليَّ من ذلك؟

وقد دار بأخْلادِهم — أولَ الأمر — أنني أعْبَثُ، وأنني أَقطع حبال السفن ثم أتركها للموج لِتَرْتَطِمَ وتَصْطَدِمَ، ولكنَّ ظُنونهم قد خابَتْ، وأحلامَهم قد طاشَتْ — حين رأَوْني أَجُرُّ الأسطول كله مرة واحدة — فاستولَى عليهم اليأس والجزع. وظلوا يَصيحون، وهم في حَيْرة من أمرهم.



وما أَصْبَحْتُ بمأمَنٍ من كَيْدِهم، بعد أن وصلت إلى مسافة أبعدَ منْ مَرْمَى سِهامهم، حتى وقفت قليلًا، ونزعت ما أَصاب وجهي ويديَّ من سهامهم، ثم استأنفت سيري إلى ميناء «ليليبوت»، فرأيت الإمبراطور ورجالَ حاشِيته يترقبون عودتي، على شاطئ البحر بفارغ الصبر.

ثم رأَوُا الأُسطول يقترب منهم — وأَنا غائص في الماء إلى عُنُقي — فلم يتبيَّنوني — أولَ الأمر — وحسِبوا أن أُسطول العدوِّ قد جاءهم ليغزوَ أرضهم، فاشتد جزعهم، وقد حسِبوا أنني أَصبحت في عِداد الهالكين، وظنوا أن العدوَّ قد تغلب عليَّ بكثرة عَدَدِه

وعُدَدِه، فلما ظهرتُ أَمامهم تبدَّدَتْ مَخاوِفُهم، وتهلَّلت وُجوهُهم بِشْرًا وسرورًا، وصاحوا جميعًا هاتفين من شدة الفرح بهذا الفوز المبين: «لِيَحْيَ إمبراطور «ليليبوت» ذو القوة والجبروت!»

(٥) مَطامِعُ الإمبراطور

ثم جاءني الإِمبراطور — وعلى أَساريرِه أَماراتُ الغِبْطَةِ والسرور — وأَثْنَى عليَّ أَطيب الثناء، وشكر لي صنيعي أَجزل الشكر، وأَطلق عليَّ لقب «نَصِير الدَّولة»، ومنَحني — إلى ذلك — لقب «مُرداك»، وهو أَكبر لقب من أَلقاب الشرف، يمنحه الإمبراطور مَنْ أَسْدَى إلى الدولة أَكبر صنيع.

ولكنَّ الإمبراطور لم يكْتفِ بهذا النَّصر الْمُبين، وطمَحَتْ نفسه إلى التّنْكيل بأعدائه، والانتقام منهم أَشْنع انتقام، فطلب إليَّ أَن أُضيف — إلى هذا الصنيع — صنيعًا آخر، فَأَجِيئَهُ ببقية السفن التي يملكها الأعداءُ. وقد أَعْماه الْجَشَعُ وأَنساه الطمع كل شيء، فأصبح — بعد إِدْراكِ هذا الفوز الذي لم يُكَبِّدْه أَيَّ عَناء، ولم يكن ليحلُم به من قبل — لا يفكر في شيء إلا أن يُذِلَّ أَعداءه إِذلالًا، فيستولي على «بليفُسكو»، ويستَعْبِد أَهلها، ويُلحقها بإمبراطوريته العظيمة، ويستعمل عليها واليًا من قِبَله، ويُنَكِّل بزُعماء الثورة الذين لجئُوا إلى تلك البلاد، ويُصدر قانونًا عامًّا يُحَتِّمُ على جميع هذه الشعوب أَن يكسِروا البيْض من طرَفِه الْمُسْتَدِقِّ، وأَن يكون القتل والصَّلْبُ جَزاءَ من يخالف هذا القانون الصَّارِمَ.

وما إن كاشَفَني بأطْماعه تلك، حتى دَهِشْتُ من قسوته وعُنفه، وشَهْوَتِه الجامِحَة، ورغبته الْمُلِحَّة في الانتقام. ورأَيت أَن أَسْلُكَ كل وسيلة لأُحوِّله عن رأيه الخاطئ، فأكثرت له من الأمثلة والْحُجَج على سُوءِ عَواقِب البَغْي، وأظهرت له خَطَرَ سياسة العُنف، ومَزايا العدل والعفو عند المقدرة، فلم يَثْنِ ذلك من عَزْمِه، وأَبَى إلاَّ تحقيقَ أطْماعه، وإرضاء جَشعه.

وأَبَى عليَّ ضميري وإنصافي أن أكون عَوْنًا على الظلم، وأن يتَّخذني الإِمبراطور وسيلة إلى القضاء على حُرِّيَّةِ شعب نبيل شجاع.

ولَمَّا عقد الإِمبراطور مجلس الشُّورى كاشفته برأيي، وعارضته في سياسته، فامتعض من مخالفتي رأيه، وتألم لذلك أشد الألم، ولكنه أسرَّ ذلك في نفسه، ولم يَغْفِرْ لي هذه الْمُخالَفة الجريئة، ونَسِيَ ما أَسْدَيْتُه إِليه من صَنِيعٍ. على أنه كَظَمَ غَيْظَه، وتكلَّف الوُدَّ.

ورأى خُصومي وأعدائي — في معارضة الإمبراطور ومكاشَفَتِه برأيي — وسيلة للكيد لي، والانتقام مني، وإيغارِ صدرِه عليَّ.

(٦) مُفاوَضاتُ الصُّلْحِ

وبعد ثلاثة أسابيعَ من ذلك الانتصار الباهِرِ، حضر وَفْدٌ سياسيٌّ من «بليفُسكو»، ومعه مُعاهَدة على الصلح، وقد نزلوا عن مطالبهم، وجامَلوا الإمبراطور بكل وسيلة. وكان ذلك الوَفْدُ مؤلفًا من ستة رجال — من أعْيانِ «بليفُسكو» وسَراتِها — يتبعهم خَمْسُمائة جندي، وفي هذا وحده دليلٌ على خَطَرِ ما جاءوا لأجله.

وما أبْرَمُوا الْمُعاهدة، حتى عرَفوا — من مصدر خَفِيٍّ لا أعلمُه — كل ما دار بيني وبين الإمبراطور من مُعارَضَةٍ شَريفة لِوَقْفِ أطْماعه وجَشَعِه، فجاءوا لزيارتي باحتفال عظيم وشكروا لي مُروءَتي، وأثنَوْا على شجاعتي وكرَمي، ودعَوْني لزيارة مَوْلاهم إمبراطور «بليفُسكو» الذي ذاعتْ مَناقِبُه ومَزاياه الباهرة في كل أنحاء العالم، فوعدْتُهم بزيارة جلالته قبل أن أعودَ إلى بلادي.

وكان سُفَراءُ «بليفُسكو» يتحدثون، إليَّ بلغتهم، فيترجمها لي تَرجُمانٌ منهم بلغة أهل «ليليبوت» وقد كان بين اللُّغتين اختلافٌ كبيرٌ، وكان كل من الشّعبين يفخَرُ بِلُغَتِهِ ويَحْتَقِرُ اللغة الأخرى.



(٧) جَفاءُ الإمبراطورِ

وبعد أيامٍ قليلةٍ التمسْتُ من الإمبراطور أن يأذَنَ لي في زيارة إمبراطور «بليفُسكو» العظيم، فأجابني إلى ذلك في جَفاءٍ وامْتِعاض، وقد بدت على أساريره أمارات الغيظ والحَنَقِ.

وكأنما نسيَ الإمبراطور أنه مَدينٌ لي — وحْدي — بهذا الفوز الباهِر، فتملَّكه الزَّهْوُ، وراح يتحكَّم في سُفراء «بليفُسكو». ويأمرهم أن يقدموا إليه أوراق اعتمادهم، وألَّا يتحدثوا إليه — في خُطَبهم — بغير لغة بلاده. ولم يكن ذلك ليُعْجزهم، فقد كان لتبادل التجارة بين الإمبراطوريَّتين فضلٌ في إتْقان خاصَّتِهما هاتين اللغَتَيْن. وقد كان أهل «ليليبوت» يُرسلون أبناء سَراتِهم إلى «بليفُسكو» ليتزوَّدوا من العلم وفُنون الحرب والسِّباحة وما إلى ذلك. وقد سهَّل هذا الاتِّصال كله إجابة طلب الإمبراطور، وإن كان في قَبولِه مَسٌّ لكرامتهم القومية.

(٨) قصرُ الإمبراطورِ يحترقُ

وبعد أيامٍ قلائلَ أُتيحتْ لي فرصةٌ أُخرى لإسداء صَنِيعٍ جديد إلى إمبراطور «ليليبوت»، فقد استيقظت — في منتصَف ليلة مُقْمِرَةٍ — على صيحات جمهرة الشعب الذي جاء يستصرِخني، ويطلب النجدة والغَوْث من كارثة أليمة حلَّت بقصر الإمبراطور. وما إن أَفَقْتُ من نومي حتى جاء إليَّ جماعة من حاشية الإمبراطور — بعد أن شَقُّوا طريقهم بين صفوف الجُمهور المُتراصَّة — وتوسلوا إليَّ أن أُسرع الخُطا لأُخْمِدَ النار التي شبَّت في غرفة الإمبراطورة.

وكان سبب هذا الحريق أن إحدى وصيفاتِ الإمبراطورة كانت تقرأ قصيدة أحد شعراء «بليفُسكو» وهي مُضْطَجِعَة على فِراشها، فبَدَرت منها حركة — دون قصد — فانقلب الْمِصباح على الأرض واشتعلت النار، فصرخت الوصيفة صُراخًا مزعجًا أيقظ كل من في القصر، وأسرع جنود الإمبراطور وجمهرةُ الشعب ليُطفئوا النار، فذهبت جهودهم كلُّها سدًى.

وما إن سمعتُ من الحاشية نبأ هذا الحريق، حتى قمت — من فَورِي — مُسرعًا، فوصلت إلى القصر الإمبراطوريِّ، وكان الْبَدْرُ مُؤْتَلِقًا في هذه الليلة — لحسن الحظ — فأبصرت طريقي واضحةُ جَلِيَّة، ولم تَطَأْ قَدَمايَ أحدًا. وما وَصلتُ إلى القصر حتى رأيت رجال المطافئ قد رفعوا سلالمهم على جُدْرانه، ولكن الماء كان — لسوء حظهم — على مسافة بعيدة من القصر.

ورأيت دِلاءَهم في مثل حجم أُنْمُلَتي تقريبًا، ورأيت الحريق يشتد ويَعْظُمُ بسرعة، وعلمت أن النار ستلتهم هذا القصر البديع الفخم بعد وقت قصير، فلم أَيْئَسْ من إخْمادِ النار الْمُسْتَعِرَة؛ وعنَّتْ لي فكرةٌ سَديدَةٌ، فأسرعت إلى مسكني، وحملت طَسْتًا كبيرًا كنت أستحِمُّ فيه، وكان مملوءًا بالماء — لحسن الحظ — فألقيت ما فيه من الماء على ذلك اللَّهَبِ الْمُسْتَعِرِ، فخمَدت النَّارُ في الحال.

ولم أكنْ أعرِف — حينئذ — هل يرضَى الإِمبراطور عن هذا العمل أو يستنكرهُ مني؟ فقد كنت أَعْلَمُ أن قانون الإِمبراطورية ينُصُّ على أن كل من يجرُؤ على الدُّنُوِّ من القصر الإِمبراطوري — من غير إِذْنٍ — أو يُلْقِي عليه شيئًا قَذِرًا، فجزاؤه القتل.

وما كنت لأجهلَ أنني أَلقيت على القصر الإِمبراطوري ماءً قذرًا، وأنني أستوجب — لذلك — عُقوبةَ الصَّلْبِ أو القتل، ولكنني اضطُرِرت إلى هذا العمل اضطِرارًا، ولم يكن لي مَنْدُوحَةٌ عنه. فقد آثرت أن أَخْرِقَ القانون — عامِدًا — لأُنقذَ قصر الإِمبراطور: وبعضُ الشَّرِّ أهْوَنُ من بعضٍ!

وإني لأَتوقَّعُ العقابَ أو العفو — وأنا حائِرٌ بين فَدَاحَة الْجُرْم ونُبل الْمَقْصِدِ الذي دفعني إلى اقْتِرافِه — إذ علمت أن جلالة الإِمبراطور قد أمر قاضيَ القُضاةِ أن يرسِل إليَّ بكِتابِ العَفْو عن ذلك الجُرْمِ الذي ارتكبته، يَدْفَعُني قَصْدٌ حَسَنٌ.

الفصل السادس

(١) سكان الإمبراطورية

ولا شكَّ أن القارئ قد تاقَتْ نفسُه إلى تعرُّف صِفات هؤلاء السكان وآرائهم ومُعْتَقَداتهم. ولما كان ذلك يحتاج إلى سِفْرٍ بِعَيْنِه. فإني أجتزئُ — في هذا الفصل — بذكْرِ أَهم ما يُحِبُّ القارئ أَن يعرفه من شَأْن سكان هذه الإِمبراطورية.



أما مُتوسِّط ارتفاعِ قاماتهم، فلا يكاد يزيد على سِتِّ أصابِعَ، وقد كانت نباتاتُهم وأشجارهم وحيوانهم مُناسِبةً ضآلَةَ أجسامهم، وصِغَر حُجومهم، فلم يكن يزيد ارتفاعُ الجيادِ والعجول على أربعِ أصابع أو خَمْسٍ، وكان متوسطُ ارتفاع الخِرْفان إصبعًا ونصف إصبع، وكان إوَزُّهم يكاد يشبه الشُّحْرورَ. أما حشرات هذه البلاد فقد كان من الْمُحال عليَّ أن أراها لدقتها. على أن أبصار هؤلاء الأقزام كانت تتبيَّنُها بسهولة تامة، فقد وهبهم الله — سبحانَهُ — بَصَرًا حَدِيدًا يُمَكِّنهم من رؤية أدقِّ الأشياء التي لا نراها إلا بالْمِجْهَرِ. وقد رأيت — ذات مرة — طاهِيًا ينتِف ريش قُبَّرَةٍ لا يزيد حجمها على حجم الذبابة، وأذكر

أنني رأيت فتاة تُدخل خيطًا في سَمِّ الْخِياطِ (ثَقْبِ الْإِبْرَةِ) فلم أستطع أن أرى الخيط وَلا الإِبرة لدقتهما، بلْهَ سَمَّ الإبرة.

(٢) بعضُ عاداتِهم

وكانوا يكتُبون ويقرءون في سُهولة، ولكن طريقتهم في الكتابة غاية في الغرابة، فهم لا يكتبون من اليسار إلى اليمين كما يكتب أهل أورُوبا وأمريكا، ولا من اليمين إلى اليَسارِ كما يكتب العرب، ولا من أعْلَى إلى أسفلَ كما يكتب الصِّينيون، ولا من أسفل إلى أعلَى كما يكتب بعضُ الأمم، ولكنهم يَسْلُكون في كتابتهم مَسْلَكًا يخالف أساليب الناس جميعًا، فهم يكتبون سطورًا مُنحنيةً من إحدى زوايا الورق إلى الزَّاوية الأخرى.

أما أُسلوبهم في دَفْنِ مَوْتاهُم، فهو أسلوب عجيب حقًّا، فإنهم يضعون رُءوس موتاهم — في قبورهم — إلى أسفلَ، وأَرْجُلَهم إلى أعلَى، لأنهم يعتقدون أَن يوم البَعْثِ سيجيء بعد أحدَ عشرَ ألفَ قمرٍ، وحينئذ يبعث الله من في القبور، ويقلب الأرض فيجعل سافِلَها عالِيَها. وَلَمَّا كانوا يظنون أن الأرضَ منبسطةٌ ليست كُرَوِيَّة، رأَوْا أن يدفنوا موتاهم بهذه الطريقة، حتى إذا جاء يومُ البَعْثِ والنُّشُورِ وانقلبت الأرض — حينئذ — فأصبح عاليها سافِلَها، بُعِثَ مَوْتاهُم واقفين على أَقدامهم.

وكان العامَّةُ يؤمنون بهذه الْخرافَةِ إيمانًا وثيقًا، ويرَوْنها من العقائد الدينية التي يجب على كل مُؤْمِنٍ أن يَدِينَ بها؛ وَيُكَفِّرون كل من يحاول أن يقنعهم بفساد هذه العقيدة، أو يُظهرَ لهم أَن دينهم براءٌ منها.

وكان عُلماؤهم وخاصَّتهم يعلمون فساد هذا الرأْي وخطأَه، ولكنهم لا يجرُءُون على إذاعَةِ آرائهم هذه، حتى لا يؤذيَهم الشعبُ، ولا يثور عليهم.

(٣) عِقابُ الخائِنِ

وأكثر قوانين هذه البلاد وعاداتهم غريب عنا، مُخالِفٌ لعاداتنا وقوانيننا كل المخالفة. ومن أعجب ما رأيته من قوانينهم صرامَتُهم في معاقبة الوُشاةِ والنمَّامين، فقد نصَّ القانون على أَن كل جريمة تُقْتَرَفُ ضد الدولة، يكون جزاؤها أقصَى العقوبة: وهو القتل — لا هَوادةَ في ذلك ولا رحمةَ — فإذا استطاع المتهم أن يبرِّئَ نفسه من تُهمَته، قضت المحكمة بقتل من ألصق به هذه التُّهمَة، وإعطاءِ البريء جميع أملاكه. فإذا وَشَى صُعْلوكٌ فقير

بإِنسان ثم ظهرت براءته. لم يكتف الإمبراطور بتبرئة البريء، وقتل الواشي الْمُسيء، بل يمنح البريء شيئًا من أملاكه الخاصة يُعَوِّضُ عليه ما لَحِقه من عَنَتِ السجن، وما أصابه من ضرر التُّهمَة. أما جريمة الغِشِّ فهي — عندهم — أشد فظاعة من جريمة السرقة، وعقابها صارم كعقاب خيانة الدولة — سَواءً بِسَواءٍ — فكلاهما جزاؤه القتل.

وإنما شدَّدوا النَّكِيرَ على الْمُدَلِّسِ الغاشِّ لأنهم رأَوْا أن من اليسير على كل إنسان — إذا كان يَقِظًا حازِمًا — أن يَصُونَ أمواله وأَملاكه عَن أَن تمتد إليها أَيْدي اللصوص، ولا كذلك الشأن في المدلِّس، فإن حيلته وأَساليب مكره تخدع الطاهرَ القلبِ. وقوانين هذه البلاد تشجِّع على النزاهة والأمانة، وتحارب فسادَ الذِّمَّةِ بكل وسيلة صارِمَةٍ، وهم في ذلك أَبعدُ نظرًا من كل من عَدَاهم من الأمم التي تتهاون في القِصاصِ ومعاقبة المجرمين.

على أَنهم لا يقتصرون على معاقبة الْمُسيء، بل يتخَطَّوْن ذلك إلى مُكافأة المحسن — تشجيعًا على إحسانه، وإغراءً لغيره بتَقليده — فإذا أَثبت إنسان أَنه أَخلص لبلاده، ولم يخالفْ قانونَها ثلاثةً وسبعين قَمَرًا، منحته الحكومة شيئًا من الامتياز — على حَسَبِ مكانته ودرجته وأَصله — وكافأَته بالمال، ولقبته بلقب «الرَّجُلِ الشَّرْعِيِّ»، وهو من أَلقاب الشرف الرفيعة عندهم، وهو وَقْفٌ على من يُمْنَحُهُ في حياته، ولا ينتقل إلى أَبنائه بعد موته.

وهم إنما يفعلون ذلك لِاعْتِقادهم أن القانونَ لا يَكْمُلُ إلَّا إذا أضاف إلى معاقبة المسيء إثابَةَ المحسن، فكما تعاقب الحكومة كل من يجرُؤ على مخالفة قانونها، يجدُر بها — إلى ذلك — أن تُثِيبَ كل من يأخذ نفسه باتِّباع القانون بدقة وإِخلاص. وهم يتمثَّلون العدالة في تمثالٍ ذي سِتِّ أَعْيُنٍ: اثنتان من أمام، واثنتان من خلفٍ، وواحدة من الجانب الأيمن، وأخرى من الجانب الأيسر — يَعْنُون بذلك تمثيل الْحِرْصِ الشديد — وفي يمين ذلك التمثال كيسٌ مملوء ذهبًا، وفي يساره سيفٌ مُغْمَدٌ، رَمْزًا إلى المكافأة والقِصاصِ، وإنما لم يَسُلُّوا السيف من غِمده رمزًا إلى إيثار الْحُسنَى والعفو. وهم — إذا اختاروا مُوَظَّفي الحكومة — يُؤْثِرون ذوي الأمانة والاستقامة والأخلاق الفاضلة على ذوي المواهب والعبقريات.

ولَمَّا كانوا يعتقدون أن الحكومةَ ضروريةٌ جدًّا للجنس البشريِّ اعتقدوا أن الله قد سَّهلَ إدارة شئونها العامة وَيسَّرَها تيسيرًا، ولم يشأ أن يجعلها من الأمور العويصة الغامضة التي لا يُتْقِنُها إلا ذَوو المواهبِ النادرة والعَبْقَرِيَّات الفَذَّة، بل جعلها هَيِّنَةً ميسورة يستطيع أن يؤدِّيَها كل إنسانٍ فاضِل يَحْرِص على النَّزاهة والاستقامة والعدل، ويجمع — إلى هذه المزايا — قليلًا من الدُّرْبَةِ واليقَظة وحب الوطن، والقيام بما عليه من فروض وواجبات.

وهم يؤمنون إيمانًا صادِقًا بأن الْخُلُقَ الفاضل وحده هو سِرُّ النجاحِ، وأن إنسانًا — بالغًا ما بلغ من المواهب العقلية النادرة والذكاء الخارِقِ والألْمَعِيَّةِ — لن ينفع بلاده إذا فقد حُسْنَ الخلُقِ ويقَظة الضمير، بل إنهم لَيَرَوْنه أشدَّ خَطَرًا على بلاده ممن حُرِم هذه المواهِبَ، لأنه أقدر على الإضْرارِ والإساءة، ولأن وزيرًا جاهلًا يقع في خَطَأٍ — لجهله — لن يكون ضررُه بليغَ الأثرِ، ولكنه — إذا كان أَلْمَعِيًّا — استطاع أن يَسْتُرَ تَدْليسَه وخيانته وإجرامه، بما أوتِيَ من حِذْقٍ ومهارة، فَيُصبحَ بمأمن من العقاب.

وهم يحرِصون على الدِّينِ أَشد الحِرص ويُفَقِّهون أطفالهم فيه، لاعتقادهم أنه أصل الخير ومصدر الفضائل وجُمَّاعُ الأخلاق النبيلة، ولا يُسندون أي عمل من الأعمال العامة لأي رجل لا يحرص على دينه ولا يَخْشَى الله.

ولَمَّا كان الشعبُ يرى في إمبراطوره أنه رسولُ القُدْرَةِ الإلهية إليه، فإنه يرى أَن من الْحَتْم على ذلك الرسول الإلهي أَلَّا يَسْتَخْدِمَ في أَعمال الحكومة أَحدًا مِمَّنْ لَا دِينَ لهم، وإلا كان الإمبراطور حانِثًا في عَهْدِه، غَيْرَ أَمِينٍ على الوَديعَةِ التي اؤْتُمِنَ عليها.

(٤) مُخالفةُ القانون

هذه هي الأُسُسُ الفاضلة التي بُنِيَ عليها قانونُهم الدقيق، على أَنهم — لسوء الحظ — لم يَتَّبعوا رُوحَ هذا القانون الذي كان سرَّ نجاح أَسْلافِهم، بل أَدخلوا فيه كثيرًا من التَّحْوير والتعديل — مُجاراةً لأهوائهم ونَزَعاتهم الطائشة — حتى أصبحت الْمَناصب العالية لا تُنال إلا بالرَّقْصِ والقفز على الحبال كما أَسلفنا، ونَسُوا نُصُوصَ قوانينهم الأولى، فكان ذلك نَذيرًا لهم بالانْحِطاط والتَّدَهْوُرِ.

وقد كان أَولَ من أَدخل هذا التغيير الْمَشْئُومَ على قانون تلك البلاد، هو والدُ الإمبراطورِ الحاليّ.

(٥) أَساليبُ التربيةِ

ويرى هذا الشعب في إنكار الجميل جريمةً كبيرة لا تُغْتَفَرُ، ويقول: «إن من أَساء إلى من أَحسن إليه لا يستحق الاحترامَ، وما أجدرَه أَن يسقطَ من عدادِ الأناسيِّ، ويُسْلَكَ في عِداد البهائم.»

ويرى هؤلاء الأقزامُ أَن الوالِدينَ جديرونَ أَلّا يحملوا أَعْباءَ تربيةِ أبنائهم، وحَسْبُهم أَنهم قد نَسَلُوا ذُرِّيَّةً جديدة تنفع بلادهم. ولذلك أَنشأت حكومَتُهم مدارسَ دينية عامة في كل بلد من البُلدان، وقد حَتَمَ قانون هذه الإمبراطورية على الآباء والأَمَّهات — ما عدا العمال والفلاحين — أن يُرْسلوا أَبناءهم وبناتهم إِلى تلك المدارس، ليتلَّقوْا ثقافتهم — متى بلغت أَسْنانُهم عشرين قمرًا — وثَمَّةَ يُنقَلون إِلى المدارس التي تُلائِم مواهبهم، وهي مدارسُ شتّى للبَنِينَ والبنات، وَفيها أَساتِيذُ مُدَرَّبون قد أَتقنوا فُنُون التدريس وَالتهذيب، وَوَقَفُوا حياتهم على خدمة النَّشْءِ وتثقيفهم، وَقد جعلوا نُصْبَ أعينهم أن يَبُثُّوا في نفوسهم مَقاصِدَ الخير والشرف، وخِلالَ العدل والشجاعة والتواضع والرحمة، ويَغْرِسوا في قلوبهم — منذ طُفُولتهم — حبَّ الوطن والدِّين.

وفي كل مدرسة رجال يُعْنَوْنَ بشئون هؤلاء الأطفال، ويُلبسونهم ثيابهم، حتى إذا بلغت أسنانُهم أربعة أعوام، أصبح من الْحَتْم عليهم أن يرتدوا ثيابهم بأنفسهم مهما سَمَتْ مَناصِبُ آبائهم.



ولا يُباحُ لهؤلاء الأطفال أن يَسْمُرُوا ويَلْهُوا إلا بِحَضْرَةِ مُعَلِّمٍ يتعَّهدهم في أسمارهم ولَهْوهم، حتى يأمَنَ عليهم النَّزَواتِ الطائشةَ، وَيِقيَهُمْ فسادَ الأخلاق في هذه السن.

وللآباء والأمَّهات أن يزوروا أبناءهم وبناتِهم — مرَّتين في كل عام — ولَيس لهم أن يلبَثوا في زيارتهم أكثر من ساعة واحدة. ولهم أن يتكلموا مع أولادهم في حُرِّيَّةٍ تامَّة، وليس لهم أن يدلِّلُوهم أو يُعْطوهم لُعَبًا أو حَلْوَى أو يُسِرُّوا إليهم بشيء لا يسمعه المعلمُ الْمُشْرِفُ على النِّظام.

أما مدارس البنات، فإنك تجد فيها بناتِ الأُسَرِ الرَّاقية يُنَشَّأْنَ كما يُنَشَّأُ الْبَنُونَ، ويَقِفُ على العناية بشُئونهن خادماتٌ أمينات يُلْبِسْنهن ثيابهن في حضرة إحدى المدرسات، حتى إذا أدركن الخامسة من سِنيهن وجب عليهن أن يرتدين ثيابهن بأنفسهن.

ومتى ثَبَتَ على إحدى الْمُرْضِعات — أو الخادمات — أنها قصَّت على أحد الأطفال قصَّة مخيفة من تلك الخرافات التي تترك في نفوس الأطفال أسْوأ الآثار، أنزلوا بها أشد العِقاب، وأمروا بِجَلْدِها في كل مَدِينَةٍ ثلاثَ جَلْدات. فإذا تمّ جَلْدُها، سُجِنت عامًا بأكمله، فإذا قضت مدَّة سجنها نُفِيَتْ إلى بَلَدٍ ناءٍ سحيق.

وهكذا تُعْنَى الحكومة بِثقَافة البنِينَ والبنات، وتَنْشِئَتِهِمْ أحسنَ تَنشِئَةٍ، مع تَعْوِيدِهم النَّظافة وحُسْنَ الأدبِ.

أما الدُّروسُ التي يتلَّقوْنها فهي هيِّنةٌ ميسورة، لا تكاد تتجاوز مبادئَ العلومِ وأدبَ اللغةِ والدينِ. ومِن حِكَمِهم وأمثالِهم المعروفة: أن الزوجةَ جديرةٌ أن تكون لِزَوْجِها خيرَ مُعينٍ، وأن تتعهَّدَ عقلَها بالثقافة والعلم دائمًا حتى لا يَشِيخَ عقلُها. ويرى هذا الشعب — رَأْيَ اليقين — أن العناية بتربية الأطفال هي أُسُّ نَجاحِ الوطن ومصدرُ خيرِ البلاد، فإن الطفل الكامِلَ سيكون — بعد قليل — الرجلَ الكامِلَ. ويقولون: إن من الْميسور أن نُؤَسِّسَ أُسرة فاضلة، كما أن من الْمَيْسور أن نَبْذُر الْحَبَّ وأن نَتَوَلَّاهُ بالعِناية. وكما أن بعض النبات يتطلب منَّا أن نَرْعاه ونَدْفَعَ عنه غائِلة الشِّتاء وقسْوة العواصف الصَّيفية وفتك الحشرات الْمُؤْذِيَةَ حتى نَجْنِيَ منه أطيب الثمار، وكما أن البُسْتانِيَّ الماهر الذكيَّ قادِرٌ على تعهُّد حديقته تعهُّدًا يجعلها تُؤْتي أطيب الثمر، كذلك الأستاذ الصالح قادر على أن يتعهد الطفل — كما يتعهد البستانيُّ النبات — وأن يَغْرِسَ فيه أنْبَلَ الأخلاق وأكرم العادات، وأن يُثمر تعهُّدُه إيَّاه أطيب الْجَنَى وأشْهاهُ.

(٦) أُسْلوبُهم في التَّعليم

وهم يُعْنَوْنَ العناية كلها بِتَخَيُّرِ المعلمين، ويُؤْثِرونَ أن يكون المعلم صحيح العقل مُتَّزِنَ التفكير، على أن يكون ذا مواهِبَ سامِيَةٍ ونُبوغٍ عظيم. وهم يَتَوخَّوْن — إلى ذلك — أن يكون المعلم كريم الْخُلُق، ولوْ كان قليلَ الاِطلاع والعلم.

أما مَناهِجُ التربية عندهم، فهي مناهِجُ واضحة، ترمي — في تفصيلها وإجمالها — إلى تعليم الأطفال: كيف يفهمون الحياة العملية فَهْمًا صحيحًا، وكيف يبتهجون بروائع

الطبيعة الفاتنة. وهم يُحَرِّمون على الْمُدَرِّسين أن يُزْعِجُوا تلاميذَهم بمناقشات عَقِيمَةٍ فارغةٍ، وأن يُرْهِقوا أذهانهم بأَخْلاطٍ من المعارف وأَشتاتٍ من العلوم لا صِلَةَ لها بالحياة. وهم يعتقدون أن الذِّهْنَ الإنسانيَّ يجب أَلا يعرف — من أَلوان العلم — إلا الضروريَّ الذي ينفعه في الحياة ويُنير له السبيل إلى النجاح. لذلك كانت علوم تلك المدارس متصلة بالحياة الخارجية أَوثق اتصال، فهم لا يَكُدُّون أَذهان تلاميذهم في تعلُّم لغةٍ قديمةٍ أَبْلاها الزمن، وقُضِيَ عليها بالموت، ولا يُرْهِقونهم بالنَّحْوِ والصَّرْفِ وما إلى ذلك. ولكنهم يُعْنَوْن بالتَّطْبيقِ والأمثلة العمليَّة، ويُعلمونهم — منذ حداثَتِهم — الحِكْمة والفلسفة، وينتهزون كل فرصة من الفرص لِتَحْبِيبها إليهم، ويتَّخذون — من أَوقات اللَّهو والتسلية — مناسبات لشرح أَسرار الطبيعةِ بطريقة فلسفية جذَّابة. وثمَّة يخرج الطالب — بعد الانتهاء من زمن الدرس — مُزوَّدًا بكل ما تطلُبه الحياة من قُوَّةٍ وجَلَدٍ وخِبْرَة، ومعه كل أَسلحة النِّضال والكِفاح.

وعندهم أَن من الْمُخْزِي أَن يخرُج الطالب من المدرسة وهو جاهل بأسرار الحياة، وأَن يبدأَ دَرْسها بعد ضَياع الفُرصة، وأَن يحاول أَن يتعلم كيف يعيش بعد أَن يقترب من نهايَةِ أَجَلِه. وأَن يصل إلى سن الرجولة وهو لا يزال طفلًا في هذه الحياة.

(٧) حُبُّ الحقيقةِ

وهم يُشجِّعون كلَّ من يعترف بِخَطِئِه، ويَمْنَحُونه أَجزل مكافأة، كما يُثِيبونَ التَّائِبَ الذي يَدُلُّ على نقائصه وعُيوبه من تِلقاءِ نفسه، ويَعْفون عنه ويكرِّمونه، لاعتقادهم أَن الرجوع عن الخطأ إلى الصواب فضيلةٌ عظيمة جديرة بالتَّقدير والتشجيع.

وهم يَنْشدون في جمهرة الشعب أن يُخْلصوا لإمبراطورهم إخلاصَ حبٍّ ووفاء وولاء، لا إِخلاصَ خوفٍ وتملُّقٍ ورِياء.

(٨) دِراسةُ التاريخِ والفلسفةِ

أما دراسة التاريخ فهي على غير ما نألَفُه في مدارسنا، وقلّما يُعَنِّي مُدَرِّسو التاريخ أنفُسَهم بشرح الحوادث التاريخية وتحليل أبطالها تحليلًا دقيقًا يصوِّر للنِّشء ما قاموا به من جلائل الأعمال، وما وقعوا فيه من الْخَطأ.

وقلَّما يأبَهُون لتواريخ السنين التي وقعت فيها أهمُّ الحوادِثِ، وذِكْرِ اليوم أو الشهر أو المكان الذي حدثتْ فيه، فإن شيئًا من ذلك كلِّه لا يَعْنيهم ولا يَروْن فيه أي خطر.

وكل ما يَعنيهم من التاريخ هو أن يتعرَّفوا أسرارَ النفس الإنسانية، وميلَ الناس إلى الظلم والقسوة، والبعدِ عن الإنصاف، والاعتداءِ على غيرهم، بَغْيًا وجَوْرًا، وإذكاء نيران الحروب — في كل عصر من العصور — لِأَتْفَهِ الأسباب، دون أن يحاسِبوا ضمائرهم على ما يقترفون من جرائمَ وآثامٍ، وينظروا إلى نتائج أعمالهم السَّيِّئةِ التي تنتهي بالقتل والتدمير والخراب.

وليس يَعْنِي هؤلاء الأقْزامَ أن يحَبِّبوا العلم إلى كل إنسان، لأنهم يريدون أن يُقْبِلَ كلُّ فردٍ من أفراد الشعب على ما يُلائِمُ طبعَه ومواهبه واستعداده من الفنون والعلوم والْحِرَفِ. وكثيرًا ما يَسْخَرون ممن يَتَغالَى في الدرس والاطلاع، ويَروْن في ذلك ضررًا بليغًا عليه. فإن العقل — فيما يعتقدون — كالجسم سَواء بسواءٍ. وكما أن الجسم يُؤْذيه الإفراط في الغِذاء فلا يَسْهُل عليه أن يَهْضِمَه، فإن العقلَ — كذلك — يؤذيه الإفراط في غذائه العلمي، فيُصاب بالتُّخَمَةِ التي تُمْرِضُهُ وتَضُرُّهُ، وربما أوْدَتْ به.

وليس عندَ الإمبراطورِ — نفسِه — مكتبةٌ كبيرة حافلة بالْمُصَنَّفات العلميَّة والفنية، وقلَّما تجد أحدًا يُعْنَى بإنشاء مكتبةٍ جامعة في بيته؛ فإذا عُني أحد الخاصة بجمع الكتب سَخِروا منه وسَلَكوه في عِدادِ الْمَعْتُوهِينَ، وشبَّهوه بالْحِمار يحمل أسفارًا من الكتب.

أما فلسفةُ هؤلاء الأقزامِ فهي غاية في اليُسْر والسُّهولة، لأنَّها فلسفةٌ عملية لا تقوم على المجادَلاتِ اللفظية والمناقشات الْمُلْتَوِيَةِ المتشعِّبة، والبحوث الغامضة العميقة، التي تُرْهِقُ الذِّهْنَ على غير طائل، ولكنها فلسفةٌ واضحة تقوم على قواعِدَ معقولةٍ وَتُؤْثر التَّوَسُّطَ في الأمور، وتعلمهم أن الشرفَ أَثمنُ من المال، وأَنَّ الرجل العظيم هو الرجل الذي يستطيع — بقوَّة إرادته — أن يَكْبَحَ جِماحَ أَهْوائه، وأن من يفعل ذلك جديرٌ أن تَسْمُوَ مكانَتُه على مكانة البطل الفاتح الذي يغلب الأعداء وينتصر عليهم في ميادين القتال.

وعندهم أن الفضيلة هي أُسُّ النجاح والفوز، ويَنْبوعُ السعادة والرفاهِيَةِ. وهم يتركون للإنسان أن يتخيَّرَ بنفسه ما يُلائمه ويَتَّفِقُ مع طبيعته من الأعمال، وله كل الحرية في ذلك من غير أن يُقَيِّدَ نفسه بِصناعة أبيه أو فَنِّه. وثمةَ ترى ابنَ الزارِعِ — مثلًا — قد رفعته مُؤَهِّلاتُه ومَزاياه إلى صُفُوف الوُزَراء، وابنَ الوزيرِ قد أصبح تاجِرًا، لأنه لا يصلح إلَّا أن يكون تاجرًا.

وليس لهذه الشُّعوبِ مَيْلٌ إلى الطَّبيعة والرِّياضة إلا بقدَرٍ معلوم، أي بحَسَبِ ما يحتاجون إليه في حياتهم وفنونهم المفيدة، وقَلَّما يُعَنُّون أنفُسَهم بتَفُّهم أجزاء العالم وأسرار الطبيعة العميقة، فحسبُهُم أن يتمتَّعوا بِمَشاهِدِها الرائعةِ دون دراسَتِها. أما العلوم النَّظَرِيَّةُ والعقليةُ فهي عندهم عَبَثٌ وخَيالاتٌ وأوْهامٌ لا طائلِ تحتها.

(٩) آراءٌ وقواعدُ

وعندهم أن الأُسلوبَ الأدبيَّ يجب أن يجمع بين الجمال والوضُوح — سواء في ذلك أُسلوب النَّظْمِ وأُسلوب النَّثْرِ — وهم يَمْقُتون التكلُّفَ والإِغْرابَ في اللغة، ويرَوْن من فساد الذَّوق والأنانِيَّةِ الْمَمْقوتَةِ أن يَتَشَدَّقَ الإنسانُ بألفاظٍ غيرِ مألوفة، ليتظاهرَ بأنه مُتَفَرِّدٌ بغَريب اللغة عن بقية مُعاصِريه.

وعندهم أن اللغة لم تُخْلَقْ إلَّا لتؤَدِّيَ الأغراضَ بأيسرِ لفظٍ وأوضحِ بَيانٍ من غير تَصَنُّعٍ ولا لَبْسٍ. فإذا أَغْفَلَ الكاتِبُ هذه الأُصولَ الْجَوْهَرِيَّةَ، ولجأ إلى الأسْلوبِ الْمُعَقَّد والاِسْتِعارات الغامِضَةِ، والكِناياتِ الغريبةِ، ونَبَا عن الأُسلوبِ السهل الصَّافي، كان موضع سُخريةِ الناس، وكان بَيانُه — في نظرهم — كأنه ثَوْبٌ مُرَقَّعٌ لا جَمالَ فيه ولا رَوْعة.

وهم يَجْمعون — إلى عِنايتهم بتهذيب النفس — عنايتَهُمْ بإِصلاح الجسم، وتقويتِهِ بكلِّ وسيلةٍ من الوسائِل، لأنهم يعتقدون أن العِناية بأحدهما — دون الآخر — لا تَكْفُل لهم وُجودَ الرَّجُلِ الكامِلِ. ولا يَتَسَنَّى لإِنسانٍ أن يصل إلى مرتبة الرُّجولة الكاملة إذا أهمل العنايةَ بأحدهما. وهم يُشَبِّهون الجسمَ والرُّوحَ بِجَوادَيْنِ قد شُدَّا إلى مركبة لِيَجُرَّاها معًا. وثَمَّةَ لا يرَوْنَ بُدًّا من أن تكون خُطُواتُهما متساويةً — في أثناء سيرهما — حتى لا يَخْتَلَّ التَّوازُنُ.

وعندهم أنك إذا قَصَرْتَ عنايتَك على تعهُّد عقلِ الطفل بالثقافةِ، وأهملتَ العنايةَ بجسمه، فإِن الضعف واختلالَ الصحة كفيلان بإِتلاف هذا الثَّمر الشَّهِيِّ. على أنك إذا قَصَرْتَ عنايتك على تعهُّد جِسْمِه وأهملتَ العناية بتثقيفه، فإن الحماقةَ والجهلَ يملآن عقلَه، فلا يستطيعُ أن يؤَدِّيَ لوطنه ما يَفْرِضُه عليه من الواجباتِ والفُروضِ.

وهم يَحْظُرون على المدرسين أن يُعاقِبوا تلاميذهم عقابًا يؤذيهم في أبْدانهم، فحَسْبُهم أن يَحْرِموهم بعضَ المزايا التي تَطْمَحُ إليها نفوسُهم — إذا لم يجدوا بُدًّا من عِقابهم — وكثيرًا ما يُعاقِبون الطَّالب بِحرمانه حُضورَ دَرْسَيْنِ أو ثلاثةٍ، فيكون لذلك العقابِ أبلغُ الأثر في نفسه.



وربما تظاهرَ الْمُعَلِّمُون أمام الطالب بأنهم لا يَرَوْنهُ أهْلًا للتعليم إذا لم يتعهَّدْ نفسَه بالإصلاح ويُقْلِعْ عن الوقوع فيما وقع فيه من خَطَأٍ.

وهم يبتعدون كلَّ الابتعاد عن ضَرْبِ الطالبِ أو إيلامِه، لأنهم يَرَوْنَ أن أمثالَ هذا العِقابِ يُعَوِّده الخوفَ والجُبْنَ — منذُ نَشأتِهِ — فلا يُشْفَى منهُما في مُسْتَأْنَفِ حياتِه.

الفصل السابع

(١) دَسائِسُ الوُشاةِ

يَحْسُنُ بي أن أُطْلِعَ القارئَ عَلى الدَّسيسة السِّرية المجرمة التي دبَّرها أعدائي رغبة في الكيد لي والانتقام مني. قَبل أن أُغادرَ إمبراطورية «ليليبوت». فَقَد أراد الأعْداء — بهذه الدسيسة — أن يَقضُوا على حياتي، أبَى الله إلَّا أن يخيِّبَ آمالهم، فكانت هذه الدسيسة سببًا في تعجيل خروجي من هذه البلاد، فِرارًا من التنكيل بي، وهَرَبًا من انتقام الوُشاةِ والدسَّاسين.

الحقَّ أقولُ: إنني لم أُخْلَق لتعلُّم واجِبات القصر، وما تقتضيه مناصب رجال الحاشية من مَراسِمَ، وليس لديَّ من الْمَهارة واللَّباقَةِ ما يُمْكِنني من مُجاراةِ هؤلاء الناس، فقد كانت صَراحة كلامي وقِلَّةُ احْتِياطي سببًا في إغضاب الإمبراطور، ورأى أعدائي في ذلك — كما قلت — فرصةً سانِحَة للكيد لي عِنْدَهُ. وما إن تأهَّبْتُ للسفر لزيارة إمبراطور «بليفسكو» حتى جاءني عظيم — من كبار رجال القصر — كان يَمْحَضُنِي الوُدَّ والنُّصْحَ ويُخلصُ لي أشد الإخلاص، وكنت قد أسْدَيْتُ إليه صنيعًا — ذات يوم — فلم يَنْسَه لي. جاءني هذا الصديق خُفْيةً — وأنا جالس ذاتَ ليلةٍ — على غير مَوْعِد، فعجبت من هذه الزَّوْرَةِ الْمُفاجِئة. وما اسْتقرَّ في بيْتي حتى أمر أَتْباعه بالانصراف، وأشار لي بأنه سيُفْضِي إليَّ بحَديث سِرِّيٍّ ذي شأن، فصرفْتُ خدَمي وأغلقت الباب، ووضعت صاحبي فوق مِنْضَدَتي، ثم أنْصَتُّ إلى حديثه إنصاتًا، فبدأ كَلامَهُ بالتَّحِيَّةِ، وما أَتَمَّ تحيته، حتى لَمَحْتُ — على وجهه — أماراتِ الحزن والكَآبَةِ، فسألته — متعجبًا — عن سِرِّ حزنه وألمه، فقال لي: «أرجو أن تُصْغِيَ إليَّ — يا صديقي العزيزَ — فإن الأمر جَلَلٌ، إذْ إنَّ حياتَك وشَرَفَك في

خطر!» فاشتد عجبي، وسألته عما يَعْنيه بذلك، فقال لي متأثرًا كئيبًا: «لقد عقدوا — منذ زمن قصير — عدة لِجانٍ سِرِّية، وقد نجحت فيها مؤامَراتُهم الدنيئة، وأصدر المؤتمرون بك قرارًا مُفَزِّعًا. وما أظنك تجهل أن وزير الحربِ يُبغِضك ويحسُدك وينتهز كلَّ فرصة لِلائْتِمار بك — منذ حللتَ هذه البلاد — ولست أعلم لهذا العَداء سببًا. على أن حِقْدَ هذا الوزير قد زاد عليك — بعد انتصارك الباهر على أهل «بليفُسكو» وظَفَرك بأُسطولهم — فما إن رأى هذا الفوز حتى اضْطَغَنَ عليك اضْطِغانًا شديدًا، ونَفَسَ عليك هذا النجاح الذي كان يتمنى لو أصابه لِنَفسه. وقد اتفق — هُوَ ووزير المال، وقائدُ الجيش، وكبيرُ الأمناء، وقاضي القضاةِ — على تدبير مؤامرة خبيثة جارِمَةً للانتقام منك وإهْلاكِك، فَعَزَوْا إليك كثيرًا من التُّهَمِ التي لم تَقْتَرِفْ واحدةً منها، وزعَموا — فيما زعَموا — أنك قد أسأْت إلى الإمبراطور، وفي هذه التُّهمَة — وحدها — ما يُبَرِّر إهلاكَكَ.»



وما إن سمعتُ منه هذا الكلام حتى بلغ تأثُّري وحزني مبلغًا كبيرًا، فَأَردْت أن أُبَرِّئَ نفسي مما زعَموه، فطلب إليَّ — راجيًا — ألَّا أقاطِعَه، وأن أُصْغِيَ إلى ما يقول؛ فَسَكَتُّ عن الكلام، فقال: «ثِقْ — أيها الصديق العزيز — أنني لم أنْسَ لَك ما أسلفته إليَّ من صَنِيعٍ، وقد بذلتُ قُصارَى جُهدي في تعرُّف دقائق هذه الْمُؤامرة وتفاصيلها، وانتهى سَعْيِي أخيرًا بالحصول على صُورة التقرير الذي كتبه خصومُك، وقد عَرَّضت نفسي للهلاك في سبيل إنقاذِك، فلو انْكشف سرّي لما كان لي من عقاب إلاَّ القتلُ.»

(٢) قَرارُ الاتِّهامِ

ثم ناولَني قرارَ الاتهام، فقرأته مدهوشًا حائرًا، وإلى القارئ نَصَّهُ:

أولًا: «نَصَّ قانون الإمبراطورية — في باب العقوبات — على أن كلَّ شخصٍ — أيًّا كان جِنْسُه — يدخل القصر الإمبراطوري من غير إذْن يعتبر مُسيئًا للإمبراطور ويكون معرّضًا للمعاقبة بأقصى العقوبات، وهو القتل. كما يَنُصُّ — في باب العُقوبات أيضًا — على أن كل من ألقى شيئًا من القاذورات على القصر الإمبراطوري يَستحقُّ القتل.

وقد ارتكب «عِملاق العمالقة» هاتين الجريمتينِ الشنيعتينِ، زاعمًا أنه يريد إطفاء النار التي شَبَّت في حجرة الإمبراطورة العزيزة، فاقْتحم فِناءَ القصر الإمبراطوريِّ — دون إذْنٍ من الإمبراطور — وأَلْقَى على النار ماءً قذرًا دنَّس به القصر. وكلُّ جريمة من هاتين الجريمتين تَسْتَوْجِبُ العِقاب بالقتل جَزاءً عادِلًا لمن يرتكبها.

ثانيًا: بعد أن تغلب «عملاق العمالقة» على أسطول «بليفسكو» وأحضره إلى هذه البلاد، أمره حضرَةُ صاحب الجلالة الإمبراطورية أن يأتِيَهُ ببقية سفن الأعداء، لتُصبح إمبراطورية «بليفسكو» مستعمَرة تابعة لإمبراطورية «ليليبوت»، وليتمكن جلالة الإمبراطور من مُعاقبة زُعَماء الفتنة والثائرين الذين هربوا إلى تلك البلاد، ويُنَكِّلَ بهم جزاء تحريضهم على الثورة والعِصيان، ولكن «عملاق العمالقة» لم يُلَبِّ أمر الإمبراطور، وأَبَى إلَّا الإصرارَ على عِصْيانه ومخالفته، معتذرًا بسبب واهٍ هو اشْمِئْزازُهُ من الإقدام على خَنْق شعب نبيل، وإذلالِ أُمة حُرَّة بريئة.

ثالثًا: لم يَكَد يأتي سُفَراءُ «بليفسكو» — منذ أَيام قليلة — إلى قَصْر «ليليبوت» طالبين الصلح مع جلالة الإمبراطور، حتى تقدم «عملاق العمالقة» إلى جلالته، باذِلًا كل ما في وُسْعِه لتخفيف العقاب، متَشَفِّعًا في أَعداء الإمبراطور، وهو يعلم — عِلْمَ اليقينِ — أَن هذا الوَفْدَ يُمَثِّل أَمَّةً طالما ناصَبَتْنا العِداء، وشَنَّتْ علينا حربًا ظالمة، وليس لهذه الشَّفاعَةِ الْمُجْرِمة إلا معنى واحد، هو خِيانَةُ الدولة والْكَيْدُ لها.

رابعًا: اعْتزم «عِمْلاقُ العمالقة» أَن يسافر إلى «بليفسكو» — بعد أَن خانَ إمبراطورَنا ولم يُؤَدِّ له واجِبَ الإخلاص والأمانة الْمَحْتُوم على كل فرد من الرَّعِيَّة — وهو على أُهْبَةِ السفر إلى بلاد الأعداء، من غير أَن يَحْصُل على إذْنٍ رسميٍّ من جلالة الإمبراطور، مكتفيًا

بإجازة شفوية، وفي هذا أكبر دليل على جُرْأَته وخِيانته، وميله إلى مساعدة إمبراطور «بليفسكو» عَدُوِّنا اللدود.»

(٣) مُناقَشَةُ التَّقرِيرِ

ثم قال لي ذلك الصديقُ العزيزُ «إن هذا التقرير يحتوي أَدِلَّة أُخرى لم أَشأ أن أَنقُلَها إليك، فقد اكتفيتُ بنقل أَهمِّها وأَعظمِها خَطَرًا، ولست أَكتُمُك أَن جلالة الإمبراطور قد ناقش هذا التقرير وأَظهر مَيْلَهُ لِلاعتدال والعَطْف، وقرَّر — أَمام المجلس — أَن العدلَ يقضي عليه بأن يَعْفُوَ عنك، وأَن حُسْنَ نيتك، وما أسلفْتَه إلى الدولة من — أعمال جليلةٍ — يُقَلِّل من مُؤاخَذَتِك، ويشفعُ لك في العفو عما أَلْصَقُوهُ بِكَ من تُهَمٍ شنيعة.



ولكن وزير الحربِ ووزير المالِ وقائد الجيش كانوا يميلون إلى الاقتصاص منك، وقتلك أشنعَ قِتلة. وقد اقترحوا أن يوقدوا النار في مسكَنِك ليلًا، وأن يقِفَ القائدُ ومعه عشرون ألفَ فارس معتمِدين قِسِيَّهُم، مُتحفِّزين لإطلاق سهامِهم المسمومة — على وجهك ويديك — إذا حاولت الفِرار من الحريق.

ورأَى غيرهم أن يَصْدُرَ أَمْرٌ سِريٌّ إلى بعض خدمك بأن يُلْقُوا في ثيابك عَصِيرًا سامًّا لا يمس جلدك حتى يُمَزِّقَه تمزيقًا، ويَفْتِك بجسمك فَتْكًا ذَريعًا. وقد وافق القائد على هذا الرأي، ولكن جلالة الإمبراطور أَصَرَّ على إنقاذ حياتك، وانضم إلى رأي جلالته كبير الأُمَناء. وقد وافق أمينُ أسرار الحكومة «السكرتير» — حين سُئِلَ عن رأيه — على أن يُصْدِرَ الإمبراطور عَفْوه عنك — وأنت تعرف أنه من خُلَصائك ومُحِبِّيك — وقد اتفق معهم على

أن التُّهَمَ التي أَلْصقوها بك خطيرةٌ حقًّا، ولكنَّ إخلاصَك وحسن نيتك جديران بالشفاعة فيما اقترفْتَه من جُرم. وقد طلب أن يخففوا العقوبة إلى أقصى حدود التخفيف.

وقال لهم — فيما قال —: «إن صداقتي وإخلاصي لعملاق العمالقة معروفان لا سبيل إلى إخفائهما، وربما كان ذلك مستوجبًا لِلظِّنَّةِ والرِّيبة في أمري، فقد يحسب بعض الناس أنني أُحابِيه، ولكنني لا أَعْبأ بمثل هذا الاتهام ما دام في ذلك إرضاءُ ضميري وإرضاءُ الحقيقة، فأنا أرى أن تَذْكُرُوا جلائلَ أعماله، وأن يكون — فيما أسلَفه من جميع الصُّنْع — ما يخفِّف مِن محاسَبَتِنا له على جرائمِه.

ولا أحسَب أن جلالة الإمبراطور يأبَى أن يُنْقِذَ حياة هذا الرجل، مكتفيًا بفَقْءِ عَيْنَيْهِ، وفي هذا عِقابٌ رادِعٌ وتحقيق لرحْمة الإمبراطور وشفقتِه. وفي ظَنِّي أن ذلك العِقابَ يُوافق مصلحةَ الدولة، لأن حياة هذا العملاق نافعة للبلاد، وهو قادر — بعد ذلك — على القيام بكل ما تَفْرِضه عليه الدولُة من الواجبات التي تحتاجُ إلى القوة الجِسْمِيَّة.»

ولكنَّ جميع الحاضرين امْتَعَضُوا، وأصرُّوا على رفض هذا الاقتراح.

ثم قام وزير الحرب غاضبًا — يكاد يَتَمَيَّزُ من الغيْظِ — وقال: «إنِّي لَفِي حَيْرَة شديدة من هذا الرأي الفائل الذي أبداه لنا أمين أسرار الحكومة، وإني لفي أَشد الدهشة من إشْفاقه على هذا الغادِرِ وضَنِّه بحياة مجرم خائن للدولة، أمَّا الأعمال التي يزعُم أن هذا العملاق قد أدَّاها للدولة فهي — كما ينص القانون — جرائمُ شَنِيعَة، فهو لم يُطْفِئ النار إلا بعد أن أَلْقى على القصر ماءً قذرًا. وإن من يقدر على إطفاء الحريق — في لحظة واحدة — يقدر كذلك على إغراقِ القصر والمدينة كلها من غير أن يُكَبِّدَه ذلك أيَّ عَناء، وإنّ من يستطيع أن يتغلب على أَسطول العدو بِمُفْرَده — إذا رَضِيَ — يستطيع كذلك أن يَرُدَّ أسطول الأعداء إليهم إذا غَضِبَ، وإن من يرفض أمر الإمبراطور، ولا يُلَبِّي إشارَتَه، لَهُوَ رجلٌ خائن للدولة مُواطِئٌ لأعدائها. وليس لهذا الْعاقِّ الغادر من جزاء — على عُقوقه وغدره — إلا الموتُ العاجِل، فإذا تهاوَنْتُمْ في أمره أصبح حَرْبًا عليكم، وإلْبًا مع أعدائكم. فلا تترددوا لحظة واحدة في التخلص منه وإهلاكه، دون أن تأخذكُم — في ذلك — هَوادَةٌ، أو تَثْنِيَكم عنه رَأْفَةٌ أو رحمة.»

وما سمع وزير المال هذه الْحُجَجَ حتى أَقَرَّها، وأعلن ارتياحه لما أبداه وزير الحربِ من السَّداد والحكمة، وأَصالة الرأي، وبعد النظر.

ثم قال وزير المال مُعَقِّبًا: «على أن خِزانَةَ الدولة قد نَقَصَتْ نَقْصًا عظيمًا بما أنفقناه على هذا العملاق من المال الجسيم، وإن كل يوم يمر على بقائِه في هذه البلاد يُكبِّد الدولة

نفقات طائلة لا تحتملها الْخِزانة العامة. أما هذه الطريقة العجيبة التي يراها أمين أسرار الحكومة، فهي أَضَرُّ علينا — وعلى البلاد — من بقائه سالِمًا. فإنَّ فَقْءَ عينيه — وإن أَضَرَّ بِهِ — يَزِيدُ شَهِيَّتَه للأكل، كما تدل على ذلك المشاهدات والاختبارات. ولعلكم عرَفتم أن فَقْءَ عيون الطيور يَزيد شَهِيَّتها للطعام، ويجعلها تَسْمَنُ بسرعة شديدة. ولا شكَّ أن جلالة الإمبراطور وأعضاء مجلِسه كلِّه — الذي انعقد لمقاضاة «عملاق العمالقة» — مقتنعون كل الاقتناع بأنه ارتكب جرائم وخطايا تستحق الإهلاك، وفي هذا مُسَوِّغٌ كافٍ لتنفيذِ أحْكام القانون بِلا تَرَدُّدٍ، أو مُناقشةٍ.»

ولما كان الإمبراطور لا يوافق على القتل، قال للمجلس متلطِّفًا: «إذا كنتم تَرَوْنَ أن فَقْءَ عينيهِ عِقَابٌ خفيفٌ، فَاشْفَعُوهُ — إذا شئتم — بِعِقاب آخر.»

فتشجع أمين أسرارِ الحكومةِ حين سمِع كلام الإمبراطور، والتمس من المجلس — في خُضوع — أن يسمح له بالرد على قول وزير المالِ. فلما أَذِنَ له المجلُس، قال: «وإذا كان وزير المالِ يرى أن غِذاء هذا العملاق يكبد الدولة مالًا طائلًا، فإن في قدرته — وحدَه — أن يعالج ذلك بطريقة أُخرى غيرَ الإهلاك، فيقلِّلَ من طعامه شيئًا فشيئًا، وبهذا ينتهي أمرُ العملاق إلى الضَّعْفِ والهُزالِ، وفِقْدانِ شهِيَّة الأكل، ثم يُسْلِمُهُ ذلك إلى الموت.»

وهكذا استطاع صديقُك أمين أسرار الحكومة أن يُقْنِعَهم بهذه الفِكرة، فاكتفَوْا بفقءِ عينيك وخَفْض طعامك حتى تَهْلِكَ جُوعًا. وقد سُجِّل ذلك في محضر الجلسة، وقرر المجلسُ إنفاذ هذا القرار بعد ثلاثة أيام. وسيجيئك أمين الأسرار — بعد مضي هذه المدة — فَيَتْلُو عليك هذا القرار، ويُظهر ما أبْداه المجلس من الرحمة بك والشفقة عليك — حين اكتفى بفَقْء عينيك — ثم يكتُم عنك بقية القرار لأنهم آثَرُوا كِتْمانه.

وسيجيء — مع أمين الأسرار — عشرون جَرَّاحًا من مَهَرَةِ أطباء جلالة الإمبراطور، لِيَفْقَئُوا عينيك، بعد أن يُسَدِّدوا سِهامهم الحادَّة إلى حَدَقَتَيْهما، وأنت مَطْروحٌ على الأرض.

وقد اعتقد جلالة الإمبراطور أَنك سَتُذْعِنُ لهذا العِقاب، وترضَى به، بعد أن تعرف أنهم قد عدَلوا عن قتلك.

والآن — يا صديقي — أرجو أن تأذَن لي في الانصراف خُفيةً، وقد أَدَّيْتُ لكَ حق الصداقة، وأخبرتك بكل ما دار، حتى تكون على بَيِّنَةٍ من أمرك.

ثم عاد هذا الصديق الوَفِيُّ — من حيث أتَى — وتركني وحدي مستسلمًا لهمومي وحَيْرَتي.

(٤) هروب «جَلِفَر»

كانت هذه البلاد — فيما علمت وكما أَثْبَتَ لِي أكثرُ من عرَفت — مثالًا من أمثلة العدل والإنصاف، ولم يكن الحكام يستبدُّون بالرَّعِيَّة قبل عَهْدِ هذا الإمبراطور وأبيه وجَدِّه — كما أسلفتُ القول — ومتى ساد الْجَوْرُ، واستسلم الحاكِمُ لأهْوائه، كان ذلك مُؤْذِنًا بِسُوء الْمَآل. وهكذا أثار هذا الإمبراطور — كما أثار أبوه وجَدُّه من قبلُ — كثيرًا من الفِتَنِ التي نَجَمَتْ عن استبداده في الحكم، وما جرّه هذا الاستبداد من خَلق الْمُشْكِلاتِ التي لا تعود على البِلاد بالنفع. وكان من سُنَّة هذا الإمبراطور التي سارها وارتضاها — ولم يَشْرَكْهُ فيها أحد من أسْلافه — أنه كان يُصدر أشنع الأحكام في أتْفَهِ الذُّنوب، ثم يُعلنها مُمْتَنًّا على شعبه بها، على الرغم مما فيها من ظلم وإرْهاق، متغنِّيًا بِصفات العطف والرحمة والشفقة التي ميَّزه الله بها عن سائر الحكام. ثَمَّةَ تمتلئُ قلوبُ الناس رُعْبًا وهَلعًا كُلما سَمِعوه يتغنى بذكر الرَّحمة والشفقة والعدالة، فقد طالَما أَلِفوا — في أمثال هذه الألفاظ — مُقَدِّماتٍ لأقْصى الأحكام الجائِرَةِ!



أما أنا فقد غَرِقْتُ في بحر منْ الهمُوم، وتَحَيَّرْت في أَمري، ماذا أَصنع؟ وكيف أَقول؟ وهل أُقابل هذا الْحُكْمَ راضِيًا مستسلمًا من غير أَن يَسمع الْقُضاة دِفاعي عن نفسي؟ على أَنني كنت واثقًا كل الثقة أَلَّا فائدةَ من ذلك لو دُعِيتُ إلى مجلس القضاء. ولقد شهِدتُ بنفسي قضايا لا تكاد تختلف عن قضيتي هذه، ورأيت كيف انتهت وَفْقَ رغَبات القُضاةِ والحكام، دون أن يُسمع لِمُتَّهَمٍ قولٌ مهما يكن صادقًا مُحِقًّا.

وتحرَّكتْ في نفسي رغبة جامحة إلى الانتقام من هؤلاء الأقزام الضِّعاف، ودَكِّ إمبراطوريتهم على رُءُوسهم دَكًّا. فقد كان من اليسير على مثلي — وأنا حُرٌّ طَليقٌ أن أقذف مدائنهم بالأحجار، وأُدَمِّر حاضِرَةَ بلادهم في زمن يَسِير، ولكنني ذكرت اليمين التي

أَقسمتها للإمبراطور، وذكرت ما غمرني به هو وشعبه — حين قَدِمْت عليهم — من فضْل وعطف وتكريم، ورأيت أن أدْفَعَ الإساءَةَ بالإحسانِ، وأن أكتفيَ بالْهَرَب من هذه البلاد، فقد كنت على يقين أن قضاءَ ذلك المجلس لا بُدَّ نافذٌ، وأن من سوء الرأي والْخَطَلِ أن أطمع في الاحتفاظ بعْيَني وحريتي وحياتي، بعد أن أصدر ذلك المجلسُ قَضاءه الْمُبْرَمَ في أمري. وقد زادني إيمانًا بهذه العقدة أَنني رأيت كثيرًا من الْمُتَّهَمين قد حوكموا في جرائمَ — أقلَّ خطرًا من جُرمي — دون أن تأخذ القضاةَ في أمرهم هَوادَةٌ ولا رحمةٌ.

وثَمَّةَ انتهزت فرصة التَّرْخِيصِ الشفويِّ الذي ظفِرت به من الإمبراطور لإعداد العُدة إلى «بليفسكو»، وبادرت — قبل أن تنقضِيَ الأيام الثلاثة التي أَجَّلَ بها مَجْلِسُ القضاء إنفاذَ حكمه — فأرسلت كِتابًا إلى صديقي أمين أسرار الحكومة بما استقرَّ عليه عزمي: من السفر — في ذلك اليوم — إلى «بليفسكو» بعد أن ذكرت له — في ذلك الكتاب — أنني إنما أَفعل ذلك بعد أن رَخَّصَ لي جلالة الإمبراطور.

ولم أنتظر رَدَّه على كتابي، فسرت — مُجِدًّا في سيري — حتى وصلت إلى شاطئ الجزيرة حيث الأسطولُ، فأخذت سفينة حربية كبيرة، وربطت حبلًا في مقدمتها، ثم رفعت مِرْساتَها، وخلعتُ ملابسي ووضعتها هي وغِطائي في تلك السفينة، وجذبتها إلى الماء، ومازلت سابحًا — طَوْرًا أعتمد عليها، وطورًا أَسبح إلى جانبها — حتى وصلت إلى ميناء «بليفسكو»، حيث رأيت الشعبَ ينتظِر قدومي بشوق شديد منذ زمن طويل. وقد قدَّموا إليَّ مُرْشِدَيْن سارا بي إلى عاصمة بلادهم. وقد رفعْتُهما بيدَيَّ حتى وصلنا إلى باب المدينة، ثم رجوتُ مِنْهما أن يُبلِّغا أَحدَ الوزراء نبأ قُدومي، وبَقِيتُ في مكاني، وأَنا أُراقِبُ أمر جَلالة إمبراطور هذه البلاد. وبعد ساعة من الزمن جاءني الرد بأن جلالة الإمبراطور وجميع الأُمَراء والوزراء قادِمون لاستقبالي، فتقدَّمْتُ بِضْعَ خُطُواتٍ حتى لَقِيتُ الإمبراطورَ وحاشِيَتَهُ — وهُمْ على جِيادهم — ورأيت الإمبراطورةَ وحاشيتها قد خرجن مع الإمبراطور لاستقبالي، فاستلقيت على الأرض ليتسَنَّى لي أَن أُقَبِّل يدى الإمبراطورِ والإمبراطورة.



وقد صادَفْتُ من إكرام القَوْم، وحسن لِقائهم، واحْتفائهم بي، ما لا أَستطيع أَن أَصفه، وقد قلت لجلالة الإِمبراطور: إنني جئت إلى بلاده — بَرًّا بِوَعْدِي — بعد تَرْخِيصِ إمبراطور «ليليبوت».

ولم أَشَأْ أَن أُحَدِّثَه عن غدْرِ ذلك الإِمبراطور ورجالِه بي. ثم قلت له: إنني مستعد لتلبية كلِّ ما يأمرني به جلالته، إلَّا فيما يعود على إمبراطور «ليليبوت» بالْخَسارَةِ والضَّرر.

وما أَحسَبُ القارئ يطمع مني في تفصيل ما شَمِلني من الْحَفاوة والابتهاج والتلطف والعناية في هذه البلاد، فإن ذلك يحتاج إلى إسْهابٍ وتَطْوِيلٍ، قد يُضْجِران القارئَ، إذ لا يجد فيهما فائدة تعود عليه.



وحَسْبُ القارئ أن يعلم أَنني كنت على أسعد حال، وأَهنأِ بال. ولم يكن يُعْوِزُني — في هذه البلاد — إلَّا وجود بيت أسكنه، وسَرير يُناسِبُ حجمي. ولِذلك اضطُرِرْت إلى افْتِراشِ الأرض، مُلْتَحِفًا غِطائي الذي جئت به إلى هذه البلاد.

الفصل الثامن

(١) زَوْرَقُ الْخَلَاصِ

وبعد ثلاثة أيامٍ من وُصولي إلى تلك البلاد الجميلة — خرجت لأتنزَّه على شاطِئِ الجزيرة الْمُشْرِف على الجهة الشماليِّة الشرقية، وأنا أتأمَّل في جمال البحر، فرأيتُ — على بُعد نصف ميلٍ — شيئًا يتحرَّك ويتقاذفه الْمَوْجُ، فلم أَسْتَطِعْ أَنْ أَتبيَّنَه بوُضوحٍ، وإن كان يلوحُ لي — من بَعيدٍ — أنه سفينة مقلوبةٌ. فخلعت حِذائي وجَوْربي، وسرت في الماء خَوْضًا نحو ثَلاثمائة مترٍ، فَرَأيت ذلك الشَّبَحَ يندفع — إلى ناحيتي — بقوَّة شديدة، فعلمت أن قوَّة الْمَدّ تَدْفَعُه إلى الشاطئ. ولما اقترب مني قليلًا استطعت أن أَتبيَّنَه بوُضوح، فإذا هو زورق كبير. فدار بِخَلَدِي أن عاصِفَةً من العواصف قد فصلته عن السفينة التي شُدَّ إِليهْا. فُعْدتُ أَدراجي إلى الْمَدينة، والتمست من جلالة الإمبراطور أن يُعِيرَني عشرين سفينةً من السفن الكبيرة التي بقيَتْ عنده — بعد أن فقدَ أُسطوله — وأن يَصْحَبَني ثلاثَةُ آلافِ ملاَّحٍ، ومعهم رُبَّانهم، فأجابني إلى مُلْتَمَسي في الحال، وسارت السفن تَشُقُّ عُبابَ البحرِ مسرعةً، وذهبتُ أنا من أقرب طريق إلى الشاطِئ، فرأَيت أن الْمَدَّ قَرَّب الزورقَ، فأصبح على مسافة قليلة من الْيابِسِ. ولما دانَتْنِي السفن، نَزَعْتُ ثيابي وسِرْت في الماء متقدِّمًا نحو مائة متر، ثم سَبَحْتُ قليلًا حتى وصلت إلى الزَّوْرَقِ. وأَلْقَى الملَّاحون إِليَّ حبلًا متينًا، فربطت أحد طَرَفيه بِحيْزُومِ الزَّوْرَقِ، وشَدَدْتُ الطَّرَفَ الآخر إلى سفينة قريبة، وسبَحت خلفَ الزورق، ودفَعته بإِحدى يديَّ، وساعدني الْمَدُّ في التقدم إلى الشاطئ. ولَمَّا رأيت الأرض قريبة مِنّي، وقفت على قدميَّ، واسترحتُ دقيقتين أو ثلاثًا، ثم دفعت الزورق بقُوة — وقد

غمرني الماء إلى إِبِطَيّ — وقذفُوا إليَّ بحبال أُخرى، فشدَدْتُها إلى الزورق، وساعدتني سُفُنُ الأَقْزام وملَّاحوها، واعتدال الريح، حتى أصبح الزورق على بُعد أربعين مترًا من الشاطئ. وصَبَرْتُ حتى انتهى وَقت المدِّ وأَعْقَبَهُ الْجَزْرُ، فانحسَرَ ماءُ البحْر واستقرَّ الزورق على اليابِسَةِ. وساعدني أَلْفا رجلٍ — بقوَّتهم وحِبالهم وآلاتِهم — على رفع الزورق، ففحصتُ عَنْهُ لأطمَئن عليه، فلم أجد فيه إلا عَيْبًا يسيرًا.





ولم تَمُرَّ عليَّ عشرةُ أيام حتى أصلحتُ الزورق، وأدخلته ميناء «بليفسكو»، فاحتشد جُمهورٌ كبير من الشعب ليشْهَدُوا هذه السفينة التي لم يروْا لها مثيلًا في كِبَر حجمها، وقد عجِبوا من ضَخامتها أشدَّ العَجب.

(٢) بينَ الإمبراطورَيْن

ولم أسْتطِع أن أكتُمَ فرحي عن إمبراطورِ «بليفُسْكو»، فقلتُ له مبتهجًا: «إنَّ حُسْنَ حَظِّي قد ساقَ إليّ هذا الزورقَ لِيُقِلَّنِي (لِيَحْمِلَنِي) إلى أيِّ مكان آخرَ أرْحَلُ منه إلى بلادي.»

والتمست منه الإذْنَ في السفرِ — بعد أيامٍ — فأذِن لي في ذلك بعد إلحاحٍ طويل، فقد أظهر لي حِرْصَه الشديدَ على بقائي ضَيْفًا في بلاده، ولكنَّه أجابَني إلى طِلْبَتِي، بعد أن أظهرتُ له حنيني إلى وطني وأهْلِي.

أما إمبراطورُ «ليليبوت» فقد كفَّ عن مُطَارَدَتي — عَقِبَ خُروجي من بِلادِهِ — وكان يحسَب أنني لا أعرِف شيئًا عن حكم مجلس قضائه عليَّ، ورغبته في الانتقام مني. فاطمأنَّ — بادئَ الأمر — وظن أنني سأعودُ من «بليفسكو» إليه بعد أيام قليلة، بَرًّا بوَعْدي إيَّاه. فلما طالت غَيْبتي اشتد قلقه، وعقد مجلس الشُّورى، فقرر المجلس اسْتِدْعائي إليه، وأرسل إلى إمبراطور «بليفسكو» رسولًا يطلب إليه أن يساعده في إرسالِي إلى «ليليبوت» لتنفيذ قرار الإمبراطور. وقد أخبر الرسولُ إمبراطورَ «بليفسكو» أن إمبراطور «ليليبوت» قد اكتفى بِفَقْءِ عينَيَّ، وأنني قد فَرَرت هاربًا من القصاصِ العادِلِ، وأنني إذا لم أُلَبِّ دعوة الإمبراطور، استردَّ مني لقب «مُرداك»، وأعلن اتِّهامي بالخيانة العظمى. ثم قال الرسولُ، فيما قالَ: «إن جلالةَ مولاهُ الإمبراطورِ يأمُلُ من جلالةِ إمبراطور «بليفُسْكو» أن يُصْدِرَ أَمرَهُ — حِرْصًا على السَّلام والصَّداقة — بإعادتي مَغْلول اليدين والقدمين إلى «ليليبوت»، ليُوقِعَ بي الجزاءَ العادلَ الذي اقتضته إرادةُ جلالته.»

فعقد إمبراطور «بليفسكو» مجلس الشُّورى، وظلُّوا يَتَدَاوَلون الرَّأْيَ — في أَمري — ثلاثة أَيام، ثم قرَّ قَرارُهم على الرفض. فأرسل إمبراطور «بليفسكو» كتابه — رَدًّا على إمبراطور «ليليبوت» — وكان غايةً في السَّدادِ والْحِكْمَة وقد قرر فيه أَنه لا يستطيع بِحالٍ من الأحوال — أن يُجيب الإمبراطور إلى طِلْبَتِه، وأن هذا الضيف — وإن كان قد سَلبَه أُسطوله — فقد قام إزاءَ ذلك بأعمال جَليلة، وكان خيرَ وَسيطٍ في إِبْرامِ صُلْحٍ عادِلٍ مُشَرِّفٍ بين البلديْن. وليس من كَرم الضِّيافة أن يُسْلِمَ الْمُضيفُ ضيفَهُ إلى خصْمه لينتقم منه.

ثم قال في خِتامِ كتابه: «على أننا سنتخَلَّصُ منه بعد أيام قليلة، فقد وَجد على شاطئ البحر سفينة عظيمة، تستطيع أن تحمله إلى وطنه. ومتى غادر بِلادَنا، خلصت الإِمبراطوريتانِ ممَّا يُكَبِّدهُما العملاقُ الهائلُ منْ أموال كثيرة.»

فعاد الرسولُ إلى «ليليبوت»، وسلَّمَ إلى إمبراطورها ذلك الكتاب.

ولا عِلْمَ لي بما حدث هناك، وما أَدْرِي كيف وقع الكتاب من نفوسهم بعد أن قرءُوا ما فيه. وقد قص عليَّ إمبراطور «بليفسكو» كل ما وقع، وأَثْبَتَ لي في أُسلوب رقيق أنه يُرحِّب ببقائي — إذا شئتُ — طولَ عمري.

(٣) في عُرْضِ البَحْرِ

على أن حَنيني إلى وطني، ورَغبتي في التخلُّص من الغُرْبَةِ، قد جعلاني لا أتردد في عزمِي على الرحيلِ، فرجَوْتُ من الإمبراطور — مُتلطِّفًا — أن يأذَن لي في السَّفرِ، وقلت له: «مادام الْحَظُّ قد ساقَ إِليَّ هذا الزورق، فإنني على ثِقَةٍ أن العِناية الإلهيةَ قد شاءت خَلاصي ورُجوعي إلى وطني، دون أن أكونَ سَببًا في وُقوعِ حَرْبٍ جديدة بين البلدين.»

ولست أظُنُّ أَن الإمبراطور قد اسْتاءَ من هذه الصَّراحَةِ، بل إني لأحسَبُه قد ارْتاح إلى طلبي هذا، تخلُّصًا من نَفَقاتِ غِذائي الْمُرْهِقَة.

وبعد أيام قليلة أتممْتُ صُنْعَ شِراعَيْن للزورق — بعد أن ساعدني في ذلك خَمْسُمائة عامِلٍ من أمْهر عُمَّالهم — ثم جمعتُ كثيرًا من الحبال المتينة، وضَمَمْتُ بعضها إلى بعض، فصارت حبلًا واحدًا، فشدَدت إليه صخرة كبيرة، لتكون لي مِرْساةً تَقِفُ الزورقَ متى شئتُ. ووضعت في زورقي شحم ثلاثمائة ثورٍ، ليكون عونًا لي عند الحاجة، وقطعت كثيرًا من الأشجار الكبيرة لأتَّخِذَ منها سارِيَةً ومجاديفَ.

ولم يَمُرَّ عليَّ شهر حتى تأهبت للسفر فحزن الإمبراطور ورجال حاشيته لرحيلي، وودَّعوني وَداعًا حارًّا، فاسْتَلْقَيْتُ على الأرض لأتمكَّنَ من لَثْم يد الإمبراطور، وتَوْديع الأمراء والوزراء.

وقد أهدى إليَّ الإمبراطور هديَّة نفيسة، كما أهدى إليَّ صورته. ثم استقْلَلْتُ الزورقَ، بعد أن وضعت فيه لَحْمَ مِائَةِ عِجل وثلاثمائة خروف، وكثيرًا من الخبز والماء، وجملةً عظيمة من القَديد (اللحم المُجَفَّفِ) أعدَّه لي أربعمائة قزم من طُهاة الإمبراطور. وأخذت معي — إلى ذلك — سِتَّ بقرات، وسبعة ثيران، وعدة نِعاجٍ وكباشٍ، كلها على قَيْدِ الحياة.

وإنما رأيت أن أحملها معي إلى بلادي لتكون شاهِدًا على إقامتي في تلك البلاد. وكذلك وضعت في زورقي شَيئًا من الشعير والْحِنْطَةِ. وكان بوُدِّي أن أَصْطَحِبَ ستةَ أقزام، ولكن

أَبَى عليَّ الإمبراطورُ ذلك، وأخذ عليَّ عهودًا ومَوَاثِيقَ ألَّا آخذ معي أحدًا من الأقزام، ولو كان ذلك بِمَحْضِ اخْتِياره.

ثم أمر بتفتيشي — حتى يطمئن على ذلك — فلم يجد في جيوبي أحدًا من رَعِيَّتِه.

وقد أبحرت في الساعةِ السادسة من صباح اليوم الرابعِ والعشرينَ من سبتمبر سنة ١٧٠١م. وقطعت نحو ستة أميال صَوْبَ الشَّمال، وكانت الريحُ تَهُبُّ من الجنوبِ الشَّرقيّ، فوصلْت — في الساعة السادسة مَساءً — إلى جزيرةٍ صغيرة في الشّمال الشرقِّي، طولها نحو نصف ميل.

فاقتربتُ منها حتى وصلت إلى شاطئها، فألْقَيْتُ الحجر حيث رَسا الزورق، وجُلْتُ في الجزيرة قليلًا، فعلمت أنها غيرُ مَأْهُولة. فأكلت من الطعام الذي أحضرته معي، وشربت، واسترحْتُ قليلًا من عَناءِ السفر، ثم استسلمت للنوم. وظلِلْت في نومي زُهاءَ سِتِّ ساعات، ثم استيقظتُ. وبعد ساعتين أشرق الصباح، فأفطرت، وكان الهواء — حينئذ — مُعْتدلًا، والجوُّ صافيًا، ثم رَفَعْتُ الْمِرْساةَ من مكانها، ووضعتها في الزَّورق، وسرت في عُرْضِ البحر مُيَمِّمًا جهة الشمال الشرقيِّ، لعلِّي أَصلُ إلى إحدى الجزائر المعروفة، وَبِقيتُ طولَ يومي لا أهتدي إلى مكانٍ أَستقرُّ فِيه.

(٤) العَوْدَةُ إلى الْوَطَنِ

فلما جاءَ اليوم التَّالي، كنتُ قد قطعت — إذا لم يخطئْ حِسْباني — نحوَ أربعةٍ وعشرينَ مِيلًا. وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر، فَرأيتُ سفينةً مُتَّجِهَةً إلى الجنوب الشرقي، فنشَرْت شِراعي مُستنجدًا بها. وبعد نصف ساعة لَمَحَني مَن في السفينة، فرفعوا العلَم فوقَها، وأطلقوا مِدْفَعًا؛ فعلمت أنهم قد فَطَنوا إليَّ، وأيقنت بالخلاص.

وليس في مَقْدُوري أن أَصِفَ للقارئ ما غمَرني من الفرح والسرور حين تحقَّق أملي في الخلاصِ، واقترَبَتْ ساعةُ الرُّجوعِ إلى بلادي المحبوبة، وحانَ أن أرَى أُسْرتي وأهْلي بعدَ يأْسٍ من اللِّقاء!

وَطَوتِ السفينةُ شِراعَها، وما زالت سائرةً حتى اقترَبتْ من زورقي في الساعة الخامسة — أو السادسة — مَساءً. وما إن رأيْتُ عَلَمَ بِلادي مَرْفوعًا عليها، حتى امتلأت نفسي سرورًا

وابتهاجًا، وشكرتُ — لِلهِ تعالى — هذا التوفيقَ الذي يَسّرَتْه لي عِنايتُه. ثم وضعتُ البَقَراتِ والخِرفانَ في جَيْبي، وصعِدْتُ إلى ظَهْر السَّفينة، بعد أن أَخذتُ من زورقي كل ما كان فيه من طعام.

وكانت هذه السفينة التِّجارية قادِمَةً من «اليابان» قاصِدَةً إلى «إنجلترا». وكان رُبَّانُها من أمْهَرِ ملَّاحِي عصره وأَشْرَفِهم نَفْسًا. وكان في السفينة نحو خَمْسين بحارًا. وقد لَقِيتُ فيهم أحد أصدقائيَ القدَماء، فتعارَفْنا — عَوْدًا على بَدْءٍ — وحَمِدنا لِلهِ تعالى هذه الْمُصادَفَةَ السعيدةَ. وقد أَحسن الكلام عني — مع رُبَّانِ السفينة — ومدحني بما شاء له أدبُه ووفاؤُه وإخلاصه.

وقد احْتَفَى بي ذلك الصديق وسألني — متلهِّفًا — أن أُحَدِّثه عن سبب وجودي مفردًا في هذا الزورق الصغير، ومن أين أتيت وإلى أين أَقصد.

فَأَوْجَزْتُ له قِصَّتي، فلم يُصدِّقْها، وحسِب أن آلامَ السفرِ ومتاعِبَ البحر قد أَثَّرت في عَقْلي وأعْصابي، وجعلتني أَهْذِي، ولا أَعرف ما أقول.

وأدركت ما يجول بنفسه من الشُّكوك والرِّيَبِ فيما قَصَصْته عليه، فأخرجت من جيوبي ما أحضرتُه من البَقَرِ والخِرفان، فتملكَته الدهشةُ وَالْحَيْرَة، وأيقن بِصدق ما قصصته عليه. ثم أَرَيْته ما أحضرته معي من دنانيرِ تلك البلاد، وصورة إمبراطور «بليفُسْكو»، وبعض التُّحف النادرة التي أحضرتها معي من هذه البلاد. وأعطيته شيئًا من تلك الدنانيرِ، ووعدتُه بأن أُهْدِيَ إليه بقرة ونعجة حين نَصِلُ إلى «إنجلترا»!

وما أحسَبُني في حاجة إلى أن أَقصَّ على القارئ تفاصيل العَوْدَة، فهي لا تَعنيه، ولم يقع فيها مما يستحقُّ الذكر إلا حادث واحد حزَنَني كثيرًا، فقد اختطفت فأرةٌ من فئْران السفينة إحدى نعاجي!

وقد وصَلْنا إلى الوطن سالِمينَ في الثالثَ عشرَ من أبريل/نيسان سنة ١٧٠٢م، وأنزلتُ ماشِيَتِي إلى البر، وأحللتها مَرْعًى خصيبًا في مَلْعَبِ كُرَةٍ في ضاحِيَةِ «جرينِتش».



وقد فَرِحَ أهْلي وأولادي وأصدقائي — بعودتي سالِمًا — فرحًا لا يوصف، ونعِمْت بقُربِهم شَهْرَيْن. وقد جَبَيْتُ أمْوالًا كثيرةً في أثناء إقامتي بينهم، إذْ عرَضتُ تلك الحيواناتِ الصغيرةَ على طائفة الخاصّةِ، وسَراةِ البلاد، وفَرَضْتُ على من يرغب في رُؤْيَتِها ثمنًا معتدِلًا، فكان الإقْبال عليها عظيمًا. ثم عَرَضْتُها — بعد أيام — على سَوادِ العامَّةِ، وجَمْهَرَةِ الشَّعْبِ، فلم يكنْ لهم شُغْلٌ سِواها، فَرَبِحْتُ بذلك أَرْباحًا كَثِيرَةً. وبعد شَهْرَيْنِ بِعْتُها بِسِتِّمائة جُنَيْهٍ إنْجِليزي.

وهكَذَا صَفا لِيَ الزَّمانُ، وارْتاحَ بالِي من الْعَناءِ، وقضيتُ في وطني شهرين، وأنا عَلى خَيْرِ ما أكونُ من رَفاهِيَةِ الْعَيْشِ، وراحَةِ النَّفْسِ.

إلمامة

جوناثان سويفت[١] مؤلف رحلات «جَلِفَر»

ولد «جوناثان سويفت» في «دوبلن» يوم ٢١ من نوفمبر سنة ١٦٦٧م. وهو من سلالة أسرة قديمة في كنيسة «يورك»، وقد تزوج جده «توماس سويفت» «إليزابيث دريدن» خالة الشاعر «دريدن» المشهور، وكان «جودوين سويفت» — أحد أعمامه — من رجال القانون في «دوبلن»، وكان والد المؤلف مدير فندق في هذه المدينة.

وقد ولد «جوناثان سويفت» بعد موت أبيه، وكانت أمه لا تملك شيئًا من حطام الدنيا، ولا تكاد تجد القوت، فاضطرت إلى التماس المعونة من بعض أقاربها، ثم نزحت تلك الأرملة الفقيرة إلى «ليستر» واضطرت اضطرارًا إلى أن تسلم طفلها إلى مرضع رحلت به إلى «وتهافن» بإنجلترا، وأبقته عندها حتى بلغ السادسة من عمره، ولكنها حين عادت به إلى «دوبلن» كان قد بدأ يعرف القراءة.

ولقد كان في هذه السن شرسًا، مفتول الساعدين، مرهوب الجانب، وكان مملوءًا صحة ونشاطًا، ولم يستطع عمه أن يبقيه عنده، فأدخله مدرسة «كيلكني» ثم ألحقه في

[١] اقتبسنا هذه الكلمة من ترجمه «سويفت» لتكون عونًا لحضرات المدرسين على فهم حياة مؤلف هذا الكتاب.

عام ١٦٨٢م بمدرسة «لاتربنتييه» في القسم الداخلي، وتولى الإنفاق عليه، ولكن «سويفت» لم يلق نجاحًا في حياته الدراسية — برغم ذكائه الحاد — فقد كان أسوأ مثال للطالب، وكان لا يفتأ يتشاجر مع أقرانه، ويعاقبه مدرسوه على شراسته. على أنه كان مولعًا أشد الولع بالمطالعة، وكان أحب الكتب إلى نفسه أبعدها عن دروسه. وكان من الطبيعي أن تنتهي حياته المدرسية بالخيبة والإخفاق، ولكنه جاز — مع ذلك — امتحان البكالوريا بنجاح، فأدهش نجاحه كل أساتذته الذين كانوا يترقبون — بملء الثقة — رسوبه في الامتحان.

وما إن التحق بالجامعة حتى صار خلقًا آخر، وأصبح ذلك المثال السيئ خير مثال للطالب النابغ الممتاز، واشتد شغفه بالعلوم، ولا سيما علمي التاريخ والتشريع.

ولما نشبت ثورة سنة ١٦٨٨م كان في العشرين من عمره، فسافر إلى إنجلترا خالي الجيب، لا يملك شيئًا، وقد سافر إلى «ليستر» على قدميه، رغبة في استشارة أمه في اختيار المهنة التي يحترفها.

فرأت أمه في ذلك فرصة حسنة، فقد كانت أشد فقرًا من ولدها، وكانت في حاجة إلى معونته، وكان لها قريبة اسمها السيدة «تمبل» متزوجة رجلًا اسمه السير «وليم تمبل» أحد كبار رجال الحكومة المعدودين، وكان من الموثوق بهم، فألحق الشاب «سويفت» بوظيفة سكرتير، بمرتب ٥٠٠ فرنك في السنة، ولكن «سويفت» الشاب المتوثب الطموح لم يكد يلتحق بهذه الوظيفة حتى دب في نفسه دبيب الملل منها.

ولعل ذلك الملل ناشئ من ضآلة مرتبها، أو لأنه كان يضطر اضطرارًا إلى تناول الطعام مع رئيس خدم الفندق في المطبخ، وقد حدث له أثناء وجوده مع السير «وليم» أنه حشد ضد الأرستقراطية كل ما في نفسه من الأحقاد والآلام التي ظهرت آثارها العميقة في كتاباته. وما أجدرنا أن نبادر فنقرر بأن أحقاده تلك لم يكن لها مسوغ، فقد كان «الشفالييه دي تمبل» يغمره دائمًا برعايته وإخلاصه وفضله. ولما اعتزل ذلك السياسي الشيخ وظيفته ووهب وقته لغرس حديقته ودراسة الأدب أصبحت وظيفة «سويفت» السكرتير الشاب هينة سهلة، وصار عنده من فراغ الوقت الذي يختص به أعماله الشخصية ما يساعده على تحقيق رغباته، وقد مهد له اتصاله بالسير «وليم» السبيل للوقوف على أسمى المعارف الإنسانية، ولم يكن هذا الشاب ليجد مرشدًا له خيرًا من هذا الشيخ، وقد اتسعت مواهبه ونمت مزاياه الباهرة الخارقة نماءً سريعًا. وكان السير «وليم» أول من لمح فيه ذلك النبوغ وقدمه إلى الملك «غليوم الثالث» فقدم له فصيلة

من الدراجون، ولكن «سويفت» لم يكن ذا نزعة عدائية حربية، بل كان يميل إلى البقاء في الدير، وأراد السير «وليم» أن يدخله مكتب حامل الأختام، فرفض هذه المهنة أيضًا. وفي سنة ١٦٩٣م ظفر بدرجة دكتور في الميثيولوجيا (علم الأساطير) ثم صار قسيسًا، وأصبح بفضل رعاية الملك وعناية السير «وليم تمبل» ظافرًا بتحقيق شيء من أطماعه التي كانت منصرفة إلى الوصول إلى أسمى المراتب الكنسية، ولم يكن يحلم بشيء إلا بالوصول إلى درجة رياسة الكهنة. وقد يئس كل اليأس بعد أن أخفق في مساعيه التي لم ينل منها سوى تلك الوظيفة المتواضعة، وظيفة قسيس، فلم يلبث فيها إلا قليلًا، ثم انتزعها منه أحد الخونة. وقد توفي السير «وليم» بعد أن أوصى له بمبلغ زهيد هو مائة جنيه، وأوصى — إلى ذلك — بأن يعنى بنشر مؤلفاته، وكانت نزعة «سويفت» الهزلية قد ذاعت وعرفت عنه، ولما خشي اللورد «بركلي» أن يصيبه شيء من تلك النزعة وهبه كنيسة «دبلاراكول». وفي سنة ١٧٠٠م ألحق بكتدرائية «سان ماتريك» فكفلت له خيراتها المختلفة دخلًا سنويًّا قدره ١٠٠٠٠ جنيه. ثم انقطع «سويفت» إلى «لاراكور» حيث تفرغ لعمله كل التفرغ، وقد ارتاح لجمال الخلاء ومباهج الطبيعة، ولكن أطماعه لم تزل جادة في سيرها، وقد دفعته إلى النزوح إلى «لندن»، فاندفع بنشاطه وهمته في ميدان السياسة وأصبح في سنة ١٧٠٤م من أكبر الزعماء، ولما كان معروفًا بأنه نقاد لاذع في نقده، فائق في أسلوبه التهكمي البارع — الذي ظهرت بوادره منذ سنة ١٦٩١م في «معركة الكتب» — ظفر من حزبه الذي يناصره ويدافع عن قضيته بأكبر قسط من التأييد. ثم فاجأته بعض الصدمات التي جرحت عزمه وكبرياءه، وأيأسته، فلم ير بدًّا من العودة إلى «لاراكور». وقد نشر بين سنتي ١٧٠٤، ١٧١٠م عددًا من تصانيفه الهزلية، كان لبعضها أثر كبير في مستقبل المملكة. ثم تولى بعد ذلك إدارة جريدة «الإجزامنر»، فحمل فيها على كثير من الكبراء، وسخر منهم، وندد بهم في قسوة عنيفة، ثم تزوج سنة ١٧١٩م «باسترجونسون» بنت وكيل السير «وليم تمبل»، وهي فتاة جميلة، وقد ذاع صيتها باسم «ستلا».

ولما عاد إلى «أيرلندا» نال شهرة شعبية عظيمة بحملاته على الوزارة الإنجليزية، وافتتن الشعب به عقب نشره «رسالة تاجر جوخ». وقد حمل فيها على إصدار نقود. وجرأ جميع مواطنيه على رفضها، فأثرت تلك الرسالة في حاكم الهند أشنع تأثير، فأمر بمحاكمة الطابع، وقرر ٣٠٠ جنيه مكافأة لمن يدله على صاحب هذه الرسالة، ولكن الطابع بريء. وأصبح «سويفت» بطل «أيرلندا» المحبوب.

وكان في كل مرة يزور فيها «أيرلندا» تقام له الزينات وتسطع له الأنوار، وكان يتحاشى كل هذه المظاهرات بوسيلة واحدة، هي الإسراع بالعودة إلى «لاراكور» حيث أنجز وضع كتابه «جلفر» وهو أحد مؤلفاته التي سجلت اسمه في عداد الخالدين.

وليست رحلات «جلفر» كما تبدو لأول وهلة مجرد قصص بسيطة عن الجنيات والعفاريت، فقد توخى المؤلف فيها، وهو يصف «ليليبوت» و«بربدنجاج»، عرض أخلاق إنجلترا تحت ستار السخرية.

وقد قال المسيو «تيرته» الناقد المشهور: «إن كل موهبته وكل مؤلفاته قد تجمعت في هذا الكتاب، وإن عقله الخصب قد طبع فيه صورته وقوته، ولست أرى أثرًا رائعًا في تصنيفه وفي أسلوبه مثل هذا الكتاب، وما هو إلا صحيفة رجل عادي، كان جراحًا، ثم ربانًا يصف بقوة وثبات ما وقع نظره عليه من الحوادث والأشياء. وكان «كوك» يكتب على هذا النحو، ولكن «سويفت» قد طلب الحقيقة، فأصابها، وكان فنه في عمله هو أن يجعل الغرض أساسًا ثم يقرر الآثار التي تنجم منه.»

وقال مؤلف آخر: «إن سياحات «جلفر» لأشد حزنًا من سياحة «دانتي» خلال الجحيم. فأنت عبثًا تلتمس فيها سببًا إلى السماء. فأي موازنة بين سياحة «بونتاجريل» و«رابيليه» الخيالية؟

إن سفينة «بونتاجريل» كانت تجري بعلم تام وبطبيعة تامة. فرياح المستقبل تهب في ثنايا شراعاتها، على حين أن «جلفر» الذي مثله «سويفت» كان يجري دون أمل أو خيال، فقد كشفت له البلاد الموهومة التي هبط إليها، عن نقائص الإنسانية التي زادت خيبته زيادة شنيعة. وقد أدرك منها أن الإنسانية مستعصية الشفاء لا سبيل إلى إصلاحها واستئصال أدرانها، وأن كل ما فيها إنما هو أنانية وشقاء، وأن العالم — حين يتكشف عنها — يصبح نوعًا من النيران المتأججة في الفضاء، وقد عمل «سويفت» على تشويهها وتجريدها من قيمتها، كما حقر المثل الأعلى للخلود.»

وقد رتب «سويفت» كل شيء بنظرة سائح مطمئنة، كل غايته وسعيه متجهة إلى شيء واحد: هو أن يظهر نفسه بمظهر الحقيقة، وقد كان جادًّا في قوله: «كان من صميم قلبي وبودي أن يصدر قانون يحتم على كل سائح ألا يذيع أنباء سياحته، وأن يقسم أمام اللورد حافظ الأختام: إن كل ما سيطبعه إن هو إلا حقيقة محضة، أو إنه كذلك على قدر ما يظن. وعلى هذا لا يكون الناس مخدوعين، كما هم دائمًا مخدوعون. وإني أصوت سلفًا لمثل هذا القانون، وأقبل راضيًا ألا تطبع مصنفاتي إلا بعد تهذيبها.»

كان «سويفت» من أشهر أعلام عصره، وقد ظهر لنا في ميدان النقد بصورة رجل هائل، قوي العضلات، مفتول الساعدين، عظيم الخطر في شئون بلده وأحواله، وهو على ثقة بأن ستكون له شهرة خالدة، ولكن الرخاء والسعادة ما كانا ليمسياه وإذا كان من الحق أن «سويفت» — وقد غامر في الحياة — لم يألف من قبل إلا مرارة التوسل للإحسان حتى اضطر إلى أن يحنو لبعض العظماء، فمن المحقق أنه كان مسلحًا، وكان قادرًا على أن يذلل العقبات التي تعترض سموه ورفعته — إذا ما توافرت فيه الشجاعة على الصبر — التي هي بحق دليل على النفوس الكبيرة، أعني النفوس التي لا تضمر حقدًا ولا غيرة. ولا مشاحة أن من الخطأ البين أن يضحي الإنسان بضميره في سبيل المصلحة، وأن يوجه ضرباته حينًا إلى حزبه. وحينًا إلى حزب آخر. جريًا وراء الفائدة التي ينشدها، ويترقب الوصول إليها من أحدهما. لهذا كان ظهور «جلفر» حادثًا جليلًا كما قلنا. وقد كتب الكاتب القصصي «جاي» لسويفت في ١٩ من نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٧٢٦م ما يلي: «نشر في لندن» هنا «كتاب عن سياحات رجل اسمه «جلفر» كان حديث الناس في المدينة كلها. وقد بيع جميع ما طبع منه في أسبوع واحد. وليس ثمة ما يدعو إلى الترويح والتسلية، أكثر مما حواه هذا الكتاب من تنوع الأفكار والآراء، فقد أجمع الناس على ذلك، ولم يشذ منهم أحد. وقد تذوقوا لذة كل كلمة فيه، ولم يعرف الناس اسم مؤلفه، وناشر الكتاب نفسه لا يدري من الذي قدم له هذا الكتاب الذي قرأته جميع الطبقات؛ من أعلاها إلى أدناها، من خاصتها إلى عامتها، من غرفة رئيس الوزارة إلى غرفة المرضع.»

على أن «سويفت» لم يكتم طويلًا ذلك السر الذي كان يحرص على ألا يذيعه، فقد أفضى به في سنة ١٧٢٧م إلى القسيس «ديفونين».

وقد كتب المسيو «نابرو» في معجم أدب اللغة يقول:

> «إن رحلات «جلفر» رواية رائعة، تشتمل على إشارات ووقائع عسرية، وتمثل لوثة الإنسانية العامة، وهذه اللوثة وحدها هي التي تهمنا اليوم، فقد زعم المؤلف أن جراحًا اسمه «جلفر» روى وقائع غريبة ومدهشة حدثت له بعد أن غرقت سفينته التي انتهت رحلتها إلى «ليليبوت»، في بلد لا يزيد طول أحد من أهليه وساكنيه على ست أصابع. ثم ذهب بعد ذلك إلى «بربدنجاج» وهو بلد أهله من العمالقة. ثم انتهى به السير إلى جزيرة «لابوتا» التي يقطنها الفلاسفة والفلكيون، ثم إلى «جلوبد» و«يدريد» حيث يسكن السحرة الذين يستعرضون — رغبة في الفكاهة — عظماء العصور السحيقة. ثم وصل إلى «لوجناك»

حيث لقي أشقى خلق الناس وأتعسهم، وهم أناس مخلدون. وأخيرًا سار في سياحة رابعة ووصل إلى بلاد «الهويههمم» أي الخيول الرشيدة المتحضرة التي تعيش على مقربة من الأكثرين بشاعة ودنسًا، وحمقًا ووحشية، وهم الرجال أو «الياهو» وهذه هي الكلمة الأخيرة. وقد سلك المؤلف في نقده طريقته المسلية التي تنطوي على الزراية بالإنسانية. وقد راج هذا الكتاب الأول في نوعه وفي عمق فكرته.»

و«جلفر» بطل «سويفت» قد ألم بكل شيء، وقد قال عنه «بريفت فيرادول»: «إن السياسة المنحطة في الرحلة إلى «ليليبوت» في منازعات عش النمل، تتلاشى حيال الحكمة الهادئة عند أهالي «بربدنجاج»، وحيال الملك الفيلسوف الذي أخذ بيده ذلك المادح الفصيح — للتقاليد والأخلاق في إنجلترا — وعطف عليه وقال له دون تأثر وانفعال: «إنه يرى أن السواد الأعظم من مواطنيه أحط من سار على وجه الأرض.»

ومن بين سياحات «جلفر» — التي حازت في فرنسا قسطًا كبيرًا من الشهرة والذيوع — قصة «البرميل» التي دس في أثنائها — بحجة الدفاع عن الكنيسة — كثيرًا من لاذع التعريض بكثير من دوي الخطر.»

وقد أصيب «جوناثان سويفت» — في آخر أيام حياته — بذهول انتهى بفقدان قواه العقلية شيئًا فشيئًا، وقد قال عنه الناقد «لاهيه»:

«لقد فقد ذاكرته، وقيل: إنه قضى عامًا دون أن يفوه بكلمة واحدة، وكان يستبشع صورة الإنسان، ويسير في كل يوم عشر ساعات وهو ذاهل معتوه.»

وقد مات «سويفت» في ٢٩ من أكتوبر سنة ١٧٤٥م وهو في الثامنة والسبعين من عمره، ودفن في كتدرائية «بتريرك».